فوائد وفرائد

تقاسيم وأنواع

قصص وتجارب

فروق ومسائل

ذكرها ابن القيم

في الجواب الكافي

حقوق الطبع محفوظة

فوائد وفرائد – تقاسيم وأنواع
قصص وتجارب – فروق ومسائل
ذكرها ابن القيم
في الجواب الكافي

اختيار وترتيب

متعب بن عبدالله القحطاني

دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية

فَائِدَة (١)

الأذكار والآيات والأدعية التي يُستشفَىٰ بها ويُرقىٰ بها، هي في نفسها نافعة شافية، ولكن تستدعي قَبول المحلِّ، وقوة همة الفاعل وتأثيره. فمتىٰ تخلف الشفاءُ كان لضعف تأثير الفاعل، أو لعدم قبول المنفعل، أو لمانعٍ قوي فيه يمنع أن ينجع فيه الدواء؛ كما يكون ذلك في الأدوية والأدواء الحسية، فإن عدمَ تأثيرِها قد يكون لعدم قبول الطبيعة لذلك الدواء، وقد يكون لمانعٍ قوي يمنع من اقتضائه أثره. فإن الطبيعة إذا أخذت الدواء بقبول تام كان انتفاع البدن به بحسب ذلك القبول، وكذلك القلب إذا أخذ الرقىٰ والتعاويذ بقَبولٍ تام، وكان للراقي نفسٌ فعالة وهمةٌ مؤثرة، أثر في إزالة الداء.

فَائِدَة (٢)

الدعاءُ من أقوىٰ الأسباب في دفع المكروه وحصول المطلوب، ولكن قد يتخلف عنه أثرُه، إما لضعفه في نفسه بأن يكون دعاءً لا يحبه اللهُ؛ لما فيه من العدوان، وإما لضعف القلب وعدم إقباله علىٰ الله وجمعيتِه عليه وقت الدعاء، فيكون بمنزلة القوس الرِّخوِ جدًّا، فإن السهم يخرج منه خروجًا ضعيفًا؛ وإما لحصول المانع من الإجابة من أكل الحرام، والظلم، ورَيْنِ الذُّنوب علىٰ القلوب، واستيلاء الغفلة والسهو واللهو وغلبتها عليها.

فَائِدَة (٣)

الدعاء من أنفع الأدوية، وهو عدو البلاء، يدافعه ويعالجه، ويمنع نزوله، ويرفعه، أو يخففه إذا نزل.

فَائِدَة (٤)

[للدعاء] مع البلاء ثلاث مقامات:

أحدها: أن يكون أقوىٰ من البلاء، فيدفعه.

الثاني: أن يكون أضعف من البلاء، فيقوىٰ عليه البلاء، فيصاب به العبد. ولكن قد يخففه، وإن كان ضعيفًا.

الثالث: أن يتقاوما، ويمنع كلُّ واحد منهما صاحبه.

فَائِدَة (٥)

من أنفع الأدوية: الإلحاح في الدعاء.

فَائِدَة (٦)

من الآفات التي تمنع ترتب أثر الدعاء عليه: أن يستعجل العبد، ويستبطئ الإجابة، فيستحسر، ويدع الدعاء. وهو بمنزلة من بذر بذرًا، أو غرس غراسًا، فجعل يتعاهده ويسقيه، فلما استبطأ كمالَه وإدراكه، تركه وأهمله.

فَائِدَة (٧)

إذا جمع الدعاء حضور القلب وجمعيته بكليته علىٰ المطلوب، وصادف وقتًا من أوقات الإجابة الستة وهي: الثلث الأخير من الليل، وعند الأذان، وبين الأذان والإقامة، وأدبار الصلوات المكتوبات، وعند صعود الإمام يوم الجمعة علىٰ المنبر حتىٰ تُقضىٰ الصلاة، وآخر ساعة بعد العصر من ذلك اليوم؛ وصادف

خشوعًا في القلب، وانكسارًا بين يدي الرب، وذُلًّا له، وتضرعًا ورقة؛ واستقبل الداعي القِبلةَ، وكان علىٰ طهارة، ورفع يديه إلىٰ الله تعالىٰ، وبدأ بحمد الله والثناء عليه، ثم ثنَّىٰ بالصلاة علىٰ محمد عبده ورسوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ثم قدم بين يدي حاجته التوبة والاستغفار، ثم دخل علىٰ الله، وألح عليه في المسألة، وتملقه، ودعاه رغبة ورهبة وتوسل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده، وقدم بين يدي دعائه صدقة = فإن هذا الدعاء لا يكاد يرد أبدًا، ولا سيما إن صادف الأدعية التي أخبر النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنها مظنة الإجابة، أو أنها متضمنة للاسم الأعظم.

فَائِدَة (٨)

الأدعية والتَّعوُّذات بمنزلة السلاح، والسلاح بضاربه لا بحده فقط، فمتىٰ كان السلاح سلاحًا تامًّا لا آفة به، والساعد ساعد قويٍّ، والمانع مفقود، حصلت به النكاية في العدو. ومتىٰ تخلف واحدٌ من هذه الثلاثة تخلف التأثير.

فَائِدَة (٩)

إذا كان الدعاء في نفسه غير صالح، أو الداعي لم يجمع بين قلبه ولسانه في الدعاء، أو كان ثم مانع من الإجابة، لم يحصل الأثر.

فَائِدَة (١٠)

من أُلهِم الدعاء فقد أريد به الإجابة، فإن الله سبحانه يقول: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ﴾ [غافر: ٦٠]، وقا ل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ [البقرة: ١٨٦].

فَائِدَة (١١)

التقرب إلىٰ رب العالمين وطلب مرضاته، والبر والإحسان إلىٰ خلقه، من أعظم الأسباب الجالبة لكل خير. وأضدادها من أكبر الأسباب الجالبة لكل شر. فما استجلبت نِعمُ اللهِ واستُدفِعت نقمُه بمثل طاعته والتقرب إليه، والإحسان إلىٰ خلقه.

فَائِدَة (١٢)

رتب الله سبحانه حصول الخيرات في الدنيا والآخرة وحصول الشرور في الدنيا والآخرة في كتابه علىٰ الأعمال، ترتيبَ الجزاءِ علىٰ الشرط، والمعلول علىٰ العلة، والمسبب علىٰ السبب.

فَائِدَة (١٣)

الفقيه كلُّ الفقيه الذي يرد القدر بالقدر، ويدفع القدر بالقدر، ويعارض القدر بالقدر، بل لا يمكن الإنسان يعيش إلا بذلك، فإن الجوع والعطش والبرد وأنواع المخاوف والمحاذير هي من القدر، والخلق كلهم ساعون في دفع هذا القدر بالقدر.

وهكذا من وفقه الله، وألهمه رشده، يدفع قدر العقوبة الأخروية بقدر التوبة والإيمان والأعمال الصالحة؛ فهذا وزان القدر المخوفِ في الدنيا وما يضاده سواء. فرَبُّ الدارين واحدٌ، وحكمته واحدة، لا يناقض بعضها بعضًا، ولا يبطل بعضها بعضًا.

فهذه المسألة من أشرف المسائل لمن عرف قدرها، ورعاها حق رعايتها، والله المستعان.

فَائِدَة (١٤)

وأحسن الناس ظنًّا بربه أطوعهم له، كما قال الحسن البصري: إن المؤمن أحسَنَ الظنَّ بربه، فأحسنَ العمَلَ. وإن الفاجرَ أساء الظنَّ بربِّه، فأساء العمل.

فَائِدَة (١٥)

وكيف يجتمع في قلب العبد تيقنه بأنه ملاق الله، وأن الله يسمع كلامه، ويرىٰ مكانه، ويعلم سره وعلانيته، ولا يخفىٰ عليه خافية من أمره؛ وأنه موقوف بين يديه ومسؤول عن كل ما عمل، وهو مقيم علىٰ مساخطه، مضيع لأوامره، معطل لحقوقه. وهو مع هذا محسن الظن به؟ وهل هذا إلا من خدع النفوس وغرور الأماني؟

فَائِدَة (١٦)

حسن الظن بالله هو حسن العمل نفسه. فإن العبد إنما يحمله علىٰ حسن العمل حسن ظنه

بربه أن يجازيه علىٰ أعماله، ويثيبه عليها، ويتقبلها منه. فالذي حمله علىٰ العمل حسن الظن، وكلما حسن ظنه حسن عمله، وإلا فحسن الظن مع اتباع الهوىٰ عجز.

فَائِدَة (١٧)

العالم يضع الرجاء مواضعه، والجاهل المغتر يضعه في غير مواضعه.

فَائِدَة (١٨)

من اعتمد علىٰ العفو مع الإصرار فهو كالمعاند.

فَائِدَة (١٩)

وأعظم الخلق غرورًا، من اغتر بالدنيا وعاجلها، فآثرها علىٰ الآخرة، ورضي بها من الآخرة حتىٰ يقول بعض هؤلاء: الدنيا نقد، والآخرة نسيئة، والنقد أنفع من النسيئة!

فَائِدَة (٢٠)

من رجا شيئًا استلزم رجاؤه أمورا:

أحدها: محبة ما يرجوه.

الثاني: خوفه من فواته.

الثالث: سعيه في تحصيله بحسب الامكان.

وأما رجاء لا يقارنه شيء من ذلك، فهو من باب الأماني!

والرجاء شيء، والأماني شيء آخر. فكل راج خائف، والسائر علىٰ الطريق إذا خاف أسرع السير مخافة الفوات.

فَائِدَة (٢١)

الذنوب تضر ولابد، وأن ضررها في القلوب كضرر السموم في الأبدان، علىٰ اختلاف درجاتها في الضرر. وهل في الدنيا والآخرة شر وداء إلا وسببه الذنوب والمعاصي؟

فما الذي أخرج الأبوين من الجنة دار اللذة والنعيم والبهجة والسرور إلىٰ دار الآلام والأحزان والمصائب؟

وما الذي أخرج إبليس من ملكوت السماء، وطرده ولعنه، ومسخ ظاهره وباطنه، فجُعِلتْ صورتُه أقبح صورة وأشنعها وباطنه أقبح من صورته وأشنع؟ وبُدل بالقرب بعدًا، وبالرحمة لعنة، وبالجمال قبحًا، وبالجنة نارًا تلظىٰ، وبالإيمان كفرًا، وبموالاة الولي الحميد أعظم عداوة ومشاقة، وبزجل التسبيح والتقديس والتهليل زجل الكفر والشرك والكذب والزور والفحش، وبلباس الإيمان لباس الكفر والفسوق والعصيان. فهان علىٰ الله غاية الهوان، وسقط من عينه غاية السقوط، وحل عليه غضبُ الرب تعالىٰ فأهواه، ومقته أكبر المقت؛ فأرداه فصار قوادًا لكل فاسق ومجرم رضي لنفسه بالقيادة، بعد تلك العبادة والسيادة فعياذًا بك اللهم من مخالفة أمرك وارتكاب نهيك.

وما الذي غرق أهل الأرض كلهم حتىٰ علا الماء فوق رؤوس الجبال؟!

وما الذي سلط الريح العقيم علىٰ قوم عاد حتىٰ ألقتهم موتىٰ علىٰ وجه الأرض، كأنهم أعجاز نخل خاوية، ودمرت ما مرت عليه من ديارهم وحروثهم وزروعهم ودوابهم، حتىٰ صاروا عبرة للأمم إلىٰ يوم القيامة؟!

وما الذي أرسل علىٰ قوم ثمود الصيحة حتىٰ قطعت قلوبهم في أجوافهم، وما توا عن آخرهم؟

وما الذي رفع قرىٰ اللُّوطية حتىٰ سمعت الملائكة نبيح كلابهم، ثم قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها، فأهلكهم جميعا، ثم أتبعهم حجارة من السماء أمطرها عليهم، فجمع عليهم من العقوبة ما لم يجمعه علىٰ أمة غيرهم؟! ولإخوانهم أمثالها، وما هي من الظالمين ببعيد!

وما الذي أرسل علىٰ قوم شعيب سحاب العذاب كالظلل، فلما صار فوق رؤوسهم أمطر عليهم نارًا تلظىٰ؟!

وما الذي أغرق فرعون وقومه في البحر، ثم نقلت أرواحهم إلىٰ جهنم؛ فالأجساد للغرَقِ، والأرواح للحرقِ؟!

وما الذي خسف بقارون وداره وماله وأهله؟!

وما الذي أهلك القرون من بعد نوح بأنواع العقوبات، ودمرها تدميرًا؟!

وما الذي أهلك قوم صاحب يس بالصيحة حتىٰ خمدوا عن آخرهم؟!

وما الذي بعث علىٰ بني إسرائيل قومًا أولي بأس شديد، فجاسوا خلال الديار، وقتلوا الرجال، وسبوا الذرية والنساء، وأحرقوا الديار، ونهبوا الأموال، ثم بعثهم عليهم مرة ثانية، فأهلكوا ما قدروا عليه وتبروا ما علوا تتبيرا؟!

وما الذي سلط عليهم أنواع العقوبات مرة بالقتل والسبي وخراب البلاد، ومرة بجور الملوك، ومرة بمسخهم قردة وخنازير؟!

وآخر ذلك أقسم الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [الأعراف: ١٦٧].

فَائِدَة (٢٢)

للمعاصي من الآثار القبيحة المذمومة والمضرة بالقلب والبدن والدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلا الله.

فمنها:

١- حرمان العلم، فإن العلم نور يقذفه الله في القلب، والمعصية تطفئ ذلك النور.

٢- حرمان الرزق. وفي «المسند»: «**إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه**».

٣- وحشة يجدها العاصي في قلبه بينه وبين الله، لا يوازنها ولا يقارنها لذة أصلًا. ولو اجتمعت له لذات الدنيا بأسرها لم تف بتلك الوحشة. وهذا أمر لا يحس به إلا من في قلبه حياة. و«لجرحٍ بميِّتٍ إيلامُ».

٤- الوحشة التي تحصل له بينه وبين الناس، ولا سيما أهل الخير منهم، فإنه يجد وحشة بينه وبينهم؛ وكلما قويت تلك الوحشة بعد منهم ومن مجالستهم، وحرم بركة الانتفاع بهم.

٥- تعسير أموره عليه. فلا يتوجه لأمر إلا يجده مغلقًا دونه، أو متعسرًا عليه.

٦- ظلمة يجدها في قلبه حقيقة، يحس بها كما يحس بظلمة الليل البهيم إذا ادْلَهَمَّ، فتصير ظلمة المعصية لقلبه كالظلمة الحسية لبصره. فإن

الطاعة نور، والمعصية ظلمة، وكلما قويت الظلمة ازدادت حيرته، حتىٰ يقع في البدع والضلالات والأمور المهلكة، وهو لا يشعر.

٧- : أن المعاصي توهن القلب والبدن.

٨- حرمان الطاعة.

٩- أن المعاصي تقصر العمر، وتمحق بركته، ولابد؛ فإن البر كما يزيد في العمر، فالفجور يقصر العمر.

١٠- أن المعاصي تزرع أمثالها ويولد بعضها بعضا حتىٰ يعز علىٰ العبد مفارقتها والخروج منها.

١١- أنها تضعف القلب عن إرادته فتقوىٰ إرادة المعصية، وتضعف إرادة التوبة شيئًا فشيئا إلىٰ أ ن تنسلخ من قلبه إرادة التوبة بالكلية.

١٢- أنه ينسلخ من القلب استقباحها، فتصير له عادة، فلا يستقبح من نفسه رؤية الناس له، ولا كلامهم فيه.

١٣- أن كل معصية من المعاصي هي ميراث عن أمة من الأمم التي أهلكها الله عَزَّوَجَلَّ. فاللوطية: ميراث عن قوم لوط. وأخذ الحق بالزائد، ودفعه بالناقص: ميراث عن قوم شعيب. والعلو في الأرض والفساد: ميراث عن فرعون وقومه. والتكبر والتجبر: ميراث عن قوم هود. فالعاصي لابس ثياب بعض هذه الأمم، وهم أعداء الله.

١٤- أن المعصية سببٌ لهوان العبد علىٰ ربه، وسقوطه من عينه.

١٥- أن العبد لا يزال يرتكب الذنب، حتىٰ يهون عليه، ويصغر في قلبه. وذلك علامة الهلاك، فإن الذنب كلما صغر في عين العبد عظم عند الله.

١٦- أن غيره من الناس والدواب يعود عليه شؤم ذنوبه، فيحترق هو وغيره بشؤم الذنوب والظلم.

١٧- أن المعصية تورث الذل، ولابد؛ فإن العز كل العز في طاعة الله تعالىٰ. قال تعالىٰ: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ [فاطر: ١٠] أي: فليطلبها بطاعة الله، فإنه لا يجدها إلا في طاعته.

١٨- أن المعاصي تفسد العقل. فإن للعقل نورًا، والمعصية تطفئ نور العقل، ولابد؛ وإذا طُفئ نورُه ضعف ونقص.

١٩- أن الذنوب إذا تكاثرت طبع علىٰ قلب صاحبها، فكان من الغافلين؛ كما قال بعض السلف في قوله تعالىٰ: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤] قال: هو الذنب بعد الذنب.

٢٠- أن الذنوب تدخل العبد تحت لعنة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

٢١- حرمان دعوة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودعوة الملائكة.

٢٢- أنها تحدث في الأرض أنواعًا من الفساد في المياه، والهواء، والزروع، والثمار، والمساكن.

٢٣- أنها تطفئ من القلب نار الغَيْرةِ التي هي لحياته وصلاحه كالحرارة الغريزية لحياة جميع البدن.

٢٤- ذهاب الحياء الذي هو مادة الحياة للقلب، وهو أصل كل خير، وذهابه ذهاب الخير أجمعه.

٢٥- أنها تضعف في القلب تعظيم الرب جل جلاله، وتضعف وقاره في قلب العبد، ولابد، شاء أم أبىٰ. ولو تمكن وقارُ اللهِ وعظمتُه في قلب العبد لما تجرأ علىٰ معاصيه.

٢٦- أنها تستدعىٰ نسيان الله لعبده، وتركه، وتخليته بينه وبين نفسه وشيطانه.

٢٧- أنها تخرج العبد من دائرة الإحسان، وتمنعه ثواب المحسنين، فإن الإحسان إذا باشر القلب منعه من المعاصي.

٢٨- أنها تزيل النعم وتحل النقم.

٢٩- ما يلقيه الله سبحانه من الرعب والخوف في قلب العاصي، فلا تراه إلا خائفًا مرعوبًا.

٣٠- أنها توقع الوحشة العظيمة في القلب، فيجد المذنب نفسه مستوحشا، قد وقعت الوحشة بينه وبين الخلق، وبينه وبين نفسه. وكلما كثرت الذنوب اشتدت الوحشة.

٣١- أنها تعمي بصيرة القلب، وتطمس نوره، وتسد طرق العلم، وتحجب مواد الهداية.

٣٢- أنها تصغر النفس، وتقمعها، وتدسيها، وتحقرها، حتىٰ تصير أصغر شيء وأحقره، كما أن الطاعة تنميتها وتزكيها وتكبرها.

٣٣- أن العاصي دائما في أسر شيطانه، وسجن شهواته، وقيود هواه؛ فهو أسير مسجون مقيد. ولا أسير أسوأ حالا من أسير أسره أعدىٰ عدو له، ولا سجن أضيق من سجن الهوىٰ، ولا قيد أصعب من قيد الشهوة.

٣٤- أنها تسلب صاحبها أسماء المدح والشرف، وتكسوه أسماء الذم والصغار.

٣٥- أنها تؤثر بالخاصية في نقصان العقل. فلا تجد عاقلين أحدهما مطيع لله، والآخر عاصٍ، إلا وعقل المطيع منهما أوفر وأكمل، وفكره أصح، ورأيه أسد، والصواب قرِينُه.

٣٦- أنها توجب القطيعة بين العبد وبين ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وإذا وقعت القطيعة انقطعت عنه أسبابُ الخير، واتصلت به أسبابُ الشر.

٣٧- أنها تمحق بركة العمر، وبركة الرزق، وبركة العلم، وبركة العمل، وبركة الطاعة؛ وبالجملة، تمحق بركة الدين والدنيا.

٣٨- أنها تجعل صاحبها من السِّفلة بعد أن كان مُهيَّئًا لأن يكون من العِلية.

٣٩- أنها تُجرِّئ علىٰ العبد ما لم يكن يجتَرِئ عليه من أصناف المخلوقات.

٤٠- أنها تخون العبد أحوج ما يكون إلىٰ نفسه.

٤١- أنها تُعمِي القلبَ، فإن لم تعمه أضعفت بصيرته، ولا بد.

٤٢- أنها تنسي العبدَ نفسه، فإذا نسي نفسه أهملها وأفسدها وأهلكها.

٤٣- أنها تزيل النعم الحاضرة، وتقطع النعم الواصلة، فتزيل الحاصل وتمنع الواصل.

٤٤- أنها تباعد عن العبد وليه، وأنفع الخلق له، وأنصحهم له، ومن سعادته في قربه منه، وهو الملك الموكل به.

٤٥- أنها تستجلب مواد هلاك العبد في دنياه وآخرته.

فَائِدَة (٢٣)

الحياة في الحقيقة حياة القلب، وعمر الإنسان مدة حياته، فليس عمره إلا أوقات حياته بالله، فتلك ساعات عمره. فالبر والتقوىٰ والطاعة تزيد في هذه الأوقات التي هي حقيقة عمره، ولا عمر له سواها.

فَائِدَة (٢٤)

العبد إذا أعرض عن الله، واشتغل بالمعاصي، ضاعت عليه أيام حياته الحقيقية التي يجد غب إضاعتها يوم يقول: ﴿يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤].

فَائِدَة (٢٥)

عمر الإنسان مدة حياته، ولا حياة له إلا بإقباله علىٰ ربه، والتنعم بحبه وذكره، وإيثار مرضاته.

فَائِدَة (٢٦)

لايزال العبد يعاني الطاعة، ويألفها، ويحبها، ويؤثرها حتىٰ يرسل الله سبحانه برحمته عليه الملائكة تَؤُزُّه إليها أزًّا، وتحرضه عليها، وتزعجه عن

فراشه ومجلسه إليها، ولا يزال يألف المعاصي، ويحبها، ويؤثرها حتىٰ يرسل الله عليه الشياطين فتؤزُّه إليها أزًّا.

فَائِدَة (٢٧)

الغيور قد وافق ربه سبحانه في صفة من صفاته، ومن وافق اللهَ في صفة من صفاته؛ قادته تلك الصفة إليه بزمامه وأدخلته علىٰ ربه، وأدنته منه، وقربته من رحمته، وصيرته محبوبًا له.

فَائِدَة (٢٨)

كلما اشتدت ملابستُه (أي العبد) الذنوبَ؛ أخرجت من القلب الغيرة علىٰ نفسه وأهله وعموم الناس، وقد تضعف في القلب جدًّا حتىٰ لا يستقبح بعد ذلك القبيح، لا من نفسه ولا من غيره. وإذا وصل إلىٰ هذا الحد فقد دخل في باب الهلاك.

فَائِدَة (٢٩)

أصل الدين الغيرة، ومن لا غيرة له لا دين له. فالغيرة تحمي القلب، فتحمِي له الجوراحَ، فتدفع السوء والفواحش.

فَائِدَة (٣٠)

أعظم العقوبات نسيان العبد لنفسه، وإهماله لها، وإضاعته حظَّها ونصيبها من الله، وبيعها ذلك بالغبن والهوان وأبخس الثمن.

فضيَّع من لا غنىٰ له عنه، ولا عِوضَ له منه، واستبدل به من عنه كل الغنىٰ، ومنه كل العوض.

مِـنْ كُـلِّ شَـيْءٍ إِذَا ضَـيَّعْتَهُ عِـوَضٌ ** وَمَـا مِـنَ اللهِ إِنْ ضَـيَّعْتَ مِـنْ عِـوَضِ

فَائِدَة (٣١)

الله سبحانه يعوض عن كل ما سواه، ولا يعوض منه شيء. ويغني عن كل شيء، ولا يغني عنه شيء. ويمنع من كل شيء ولا يمنع منه شيء. ويجير من كل شيء، ولا يجير منه شيء. فكيف يستغني العبدُ عن طاعة من هذا شأنه طرفة عين؟!

فَائِدَة (٣٢)

الخيرات التي رتبها الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه علىٰ الإيمان:

١- الأجر العظيم: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٤٦].

٢- الدفع عنهم شرور الدنيا والآخرة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨].

٣- استغفار حملة العرش لهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [غافر: ٧].

٤- موالاة الله لهم، ولا يذل من والاه الله: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

٥- أمر ملائكته بتثبيتهم: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الأنفال: ١٢].

٦- أن لهم الدرجات عند ربهم، والمغفرة، والرزق الكريم.

٧- العزة: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]{ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين } المنافقون / ٨.

٨- معية الله لأهل الإيمان: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩].

٩- الرفعة في الدنيا والآخرة: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

١٠- إعطاؤهم كفلين من رحمته، وإعطاؤهم نورًا يمشون به ومغفرة ذنوبهم.

١١- الود الذي يجعله سبحانه لهم وهو أنه يحبهم ويحببهم إلىٰ ملائكته وأنبيائه وعباده الصالحين.

١٢- أمانهم من الخوف يوم يشتد الخوف: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأنعام: ٤٨].

١٣- أنهم المنعم عليهم الذين أمرنا أن نسأله أن يهدينا إلىٰ صراطهم في كل يوم وليلة سبع عشرة مرة.

١٤- أن القران انما هو هدىٰ لهم وشفاء.

فَائِدَة (٣٣)

الذنب إما أن يميت القلب، أو يمرضه مرضًا مخوفًا، أو يضعف قوته، ولا بد، حتىٰ ينتهي ضعفه إلىٰ الأشياء الثمانية التي استعاذ منها النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ. وهي: الهم والحزن، والعجز والكسل، والجبن والبخل، وضلع الدين وغلبة الرجال.

فَائِدَة (٣٤)

الهم والحزن قرينان، فإن المكروه الوارد علىٰ القلب إن كان من أمر مستقبل يتوقعه أحدث الهم، وإن كان من أمر ماض قد وقع أحدث الحزن.

فَائِدَة (٣٥)

العجز والكسل قرينان، فإن تخلف العبد عن أسباب الخير والفلاح إن كان لعدم قدرته فهو العجز، وإن كان لعدم إرادته فهو الكسل.

فَائِدَة (٣٦)

الجبن والبخل قرينان، فإن عدم النفع منه إن كان ببدنه فهو الجبن، وإن كان بماله فهو البخل.

فَائِدَة (٣٧)

ضلع الدين وقهر الرجال قرينان، فإن استعلاء الغيرِ عليه إن كان بحق فهو من ضلع الدين، وإن كان بباطل فهو قهر الرجال.

فَائِدَة (٣٨)

الطاعة حصن الله الأعظم الذي من دخله كان من الآمنين من عقوبة الدنيا والآخرة، ومن خرج عنه أحاطت به المخاوف من كل جانب.

فَائِدَة (٣٩)

الطاعة توجب القرب من الرب، وكلما اشتد القربُ قوي الأُنسُ؛ والمعصية توجب البعد من الرب، وكلما ازداد البعد قوِيَتِ الوحشةُ؛ ولهذا يجد العبد وحشة بينه وبين عدوه للبعد الذي بينهما، وإن كان ملابسًا له قريبًا منه؛ ويجد أنسًا وقربًا بينه وبين من يحب، وإن كان بعيدًا عنه.

فَائِدَة (٤٠)

الغفلة توجب الوحشة، وأشد منها وحشة المعصية، وأشد منها وحشة الشرك والكفر.

فَائِدَة (٤١)

كل من أحب شيئًا غير الله عُذِّب به ثلاث مرات في هذه الدار: فهو يعذب به قبل حصوله حتىٰ يحصل. فإذا حصل عذب به حال حصوله بالخوف من سلبه وفواته، والتنغيص والتنكيد عليه، وأنواع المعارضات. فإذا سلبه اشتد عذابه عليه فهذه ثلاثة أنواع من العذاب في هذه الدار.

فَائِدَة (٤٢)

يا من باع حظَّه الغالي بأبخس الثمن، وغُبِن كل الغبن في هذا العقد، وهو يرىٰ أنه قد غبن، إذا لم يكن لك خبرة بقيمة السلع فسل المقومين!

فيا عجبًا من بضاعة معك، الله مشتريها، وثمنها جنة المأوىٰ، والسفير الذي جرىٰ علىٰ يده عقد التبايع وضمن الثمن عن المشتري هو الرسول، وقد بعتها بغاية الهوان!

إِذَا كَانَ هَذَا فِعْلُ عَبْدٍ بِنَفْسِهِ ** فَمَنْ ذَا لَهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ يُكْرِمُ

﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحج: ١٨].

فَائِدَة (٤٣)

القلب كلما كان أبعد من الله كانت الآفات إليه أسرع، وكلما قرب من الله بعدت عنه الآفات.

فَائِدَة (٤٤)

البعد من الله مراتب بعضها أشد من بعض. فالغفلة تبعد العبد عن الله، وبعد المعصية أعظم من بعد الغفلة، وبعد البدعة أعظم من بعد المعصية، وبعد النفاق والشرك أعظم من ذلك كله.

فَائِدَة (٤٥)

من أعظم نعم الله علىٰ العبد: أن يرفَعَ له بين العالمين ذِكرَه ويعلي قدره.

فَائِدَة (٤٦)

عمر العبد هو مدة حياته، ولا حياة لمن أعرض عن الله، واشتغل بغيره.

فَائِدَة (٤٧)

حياة الإنسان بحياة قلبه وروحه، ولا حياة لقلبه إلا بمعرفة فاطِرِه، ومحبته، وعبادته وحده، والإنابة إليه، والطمأنينة بذكره، والأنس بقربه.

فَائِدَة (٤٨)

كلما عمل العبد معصية نزل إلىٰ أسفل درجة، ولا يزال في نزول حتىٰ يكون من الأسفلين، وكلما عمل طاعة ارتفع بها درجة، ولا يزال في ارتفاع حتىٰ يكون من الأَعْلَيْن.

فَائِدَة (٤٩)

قد تكون الخطيئة في حقه [التائب] رحمة، فإنها نفت عنه داء العجب، وخلصته من ثقته بنفسه وأعماله، ووضعت خد ضراعته وذله وانكساره علىٰ عتبة باب سيده ومولاه، وعرفته قدره، وأشهدته فقره وضرورته إلىٰ حفظ سيده له، وإلىٰ عفوه عنه ومغفرته له؛ وأخرجت من قلبه صولة الطاعة، وكسرت أنفه من أن يشمخ بها، أو يتكبر بها، أو يرىٰ نفسه بها خيرًا من غيره؛ وأوقفته بين يدي ربه موقف الخطائين المذنبين ناكس الرأس بين يدي ربه، مستحييًا منه، خائفًا وجلًا، محتقرًا لطاعته، مستعظمًا لمعصيته، قد عرف نفسه بالنقص والذم، وربه منفردًا بالكمال والحمد والوفاء.

فَائِدَة (٥٠)

أخرج الله سبحانه الأبوين من الجنة بذنب واحدٍ ارتكباه، وخالفا فيه نهيَه ولعَن إبليس، وطرده، وأخرجه من ملكوت السماء بذنب ارتكبه، وخالف فيه أمره، ونحن -معاشر الحمقىٰ- كما قيل:

نَصِلُ الذُّنُوبَ إِلَىٰ الذُّنُوبِ وَنَرْتَجِي ** دَرَجَ الْجِنَانِ لِذِي النَّعِيمِ الْخَالِدِ
وَلَقَدْ عَلِمْنَا أَخْرَجَ الْأَبَوَيْنِ ** مِنْ مَلَكُوتِهِ الْأَعْلَىٰ بِذَنْبٍ وَاحِدِ

فَائِدَة (٥١)

العبد قد يكون بعد التوبة خيرًا مما كان قبل الخطيئة وأرفع درجة. وقد تضعف الخطيئة همته، وتوهن عزمه، وتمرض قلبه، فلا يقوىٰ دواءُ التوبة علىٰ إعادته إلىٰ الصحة الأولىٰ، فلا يعود إلىٰ درجته. وقد يزول المرض بحيث تعود الصحة كما كانت، ويعود إلىٰ مثل عمله، فيعود إلىٰ درجته.

فَائِدَة (٥٢)

الطاعة حصن الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الذي من دخله كان من الآمنين، فإذا فارق الحصن اجترأ عليه قطاع الطريق وغيرهم، وعلىٰ حسب اجترائه علىٰ معاصي الله يكون اجتراء هذه الآفات والنفوس عليه.

فَائِدَة (٥٣)

الكمال الإنساني مداره علىٰ أصلين: معرفة الحق من الباطل، وإيثاره عليه. وما تفاوتت منازل الخلق عند الله في الدنيا والآخرة إلا بقدر تفاوت منازلهم في هذين الأمرين.

فَائِدَة (٥٤)

المعاصي والذنوب تعمي بصيرةَ القلب؛ فلا يدرك الحق كما ينبغي، وتضعف قوته وعزيمته فلا يصبر عليه.

فَائِدَة (٥٥)

الطاعة تنور القلب، وتجلوه وتصقله، وتقويه وتثبته، حتىٰ يصير كالمرآة المجلوة في جلائها وصفائها ويمتلئ نورًا.

فَائِدَة (٥٦)

الذنوب والمعاصي سلاحٌ ومددٌ يمد بها العبدُ أعداءَه، ويعينهم بها علىٰ نفسه، فيقاتلونه بسلاحه، ويكون معهم علىٰ نفسه، وهذا غاية الجهل.

وَمَا يَبْلُغُ الْأَعْدَاءُ مِنْ جَاهِلٍ ** مَا يَبْلُغُ الْجَاهِلُ مِنْ نَفْسِهِ

فَائِدَة (٥٧)

العبد إذا عصىٰ اللهَ؛ تباعد منه الملكُ بقدر تلك المعصية، حتىٰ إنه يتباعد عنه بالكذبة الواحدة مسافة بعيدة.

فَائِدَة (٥٨)

لا يزال الملك يقرب من العبد حتىٰ يصير الحكم والغلبة والطاعة له. فتتولاه الملائكة في حياته، وعند موته، وعند بعثه.

فَائِدَة (٥٩)

ليس أحدٌ أنفع للعبد من صحبة الملك له، وهو وليه في يقظته ومنامه، وحياته، وعند موته، وفي قبره؛ ومؤنسه في وحشته، وصاحبه في خلوته، ومحدثه في سره، يحارب عنه عدوه، ويدافعه عنه، ويعينه عليه، ويعده بالخير، ويبشره به، ويحثه علىٰ التصديق بالحق.

فَائِدَة (٦٠)

من حفِظ القوةَ بامتثال الأوامر، واستعمل الحميةَ باجتناب النواهي، واستفرغ التخليط بالتوبة النصوح = لم يدع للخير مطلبًا، ولا من الشر مهربًا.

فَائِدَة (٦١)

الذنوب إما أن تترتب عليها العقوبات الشرعية أو القدرية، أو يجمعهما الله للعبد، وقد يرفعهما عمن تاب وأحسن.

فَائِدَة (٦٢)

إذا عُطِّلتِ العقوباتُ الشرعية استحالت قدرية، وربما كانت أشد من

الشرعية، وربما كانت دونها، ولكنها تعم، والشرعية تخص، فإن الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَى لا يعاقب شرعًا إلا من باشر الجناية أو تسبب إليها.

وأما العقوبة القدرية فإنها تقع عامة وخاصة.

فَائِدَة (٦٣)

المعصية إذا خفيت لم تضر إلا صاحبها، وإذا أعلنت ضرت الخاصة والعامة. وإذا رأىٰ الناس المنكر فاشتركوا في ترك إنكاره أوشك أن يعمهم الله بعقابه.

فَائِدَة (٦٤)

سبحان الله، كم من قلب منكوس وصاحبه لا يشعر! وقلب ممسوخ، وقلب مخسوف به! وكم من مفتون بثناء الناس عليه، ومغرور بستر الله عليه، ومستدرج بنعم الله عليه!

وكل هذه عقوبات وإهانة، ويظن الجاهل أنها كرامة.

فَائِدَة (٦٥)

القلب السليم هو الذي سلم من الشرك، والغل، والحقد، والحسد، والشح، والكبر، وحب الدنيا والرياسة. فسلم من كل آفة تبعده من الله، وسلم من كل شبهة تعارض خبره، ومن كل شهوه تعارض أمره، وسلم من كل إرادة تزاحم مراده، وسلم من كل قاطع يقطع عن الله.

فَائِدَة (٦٦)

لا تتم له سلامته (القلب) مطلقًا حتىٰ يسلم من خمسة أشياء: من شرك يناقض التوحيد، وبدعةٍ تخالف السنةَ، وشهوةٍ تخالف الأمرَ، وغفلةٍ تناقض الذِّكرَ، وهوىٰ يناقض التجريد والإخلاص.

فَائِدَة (٦٧)

دل القرآن والسنة وإجماع الصحابة والتابعين بعدهم والأئمة علىٰ أن من الذنوب كبائر وصغائر.

فَائِدَة (٦٨)

الأعمال المكفرة لها ثلاث درجات:

إحداها: أن تقصر عن تكفير الصغائر، لضعفها وضعف الإخلاص فيها والقيام بحقوقها؛ بمنزلة الدواء الضعيف الذي ينقص عن مقاومة الداء كمية وكيفية.

الثانية: أن تقاوم الصغائر، ولا ترتقي إلىٰ تكفير شيء من الكبائر.

الثالثة: أن تقوىٰ علىٰ تكفير الصغائر، وتبقىٰ فيها قوة تكفر بها بعض الكبائر.

فَائِدَة (٦٩)

إن الله عَزَّوَجَلَّ أرسل رسله، وأنزل كتبه، وخلق السموات والأرض، ليعرف،

ويوحد، ويعبد، ويكون الدين كله له والطاعة كلها له، والدعوة له، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

فَائِدَة (٧٠)

الشرك في العبادة يبطل ثواب العمل، وقد يعاقب عليه إذا كان العمل واجبًا، فإنه ينزله منزلة من لم يعمله، فيعاقب علىٰ ترك الأمر.

فَائِدَة (٧١)

من لم يخلص لله في عبادته لم يفعل ما أمر به، بل الذي أتىٰ به شيء غير المأمور به، فلا يصح، ولا يقبل منه.

فَائِدَة (٧٢)

حمىٰ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جانب التوحيد أعظمَ حمايةٍ، حتىٰ نهىٰ عن صلاة التطوع لله سبحانه عند طلوع الشمس وعند غروبها؛ لئلا يكون ذريعة إلىٰ التشبه بعباد الشمس الذين يسجدون لها في هاتين الحالتين، وسد الذريعة بأن منع من الصلاة بعد العصر والصبح؛ لاتصال هذين الوقتين بالوقتين اللذين يسجد المشركون فيهما للشمس.

فَائِدَة (٧٣)

من أراد بعمله غيرَ وجهِ الله، أو نوىٰ شيئًا غير التقرب إليه وطلب الجزاء منه، فقد أشرك في نيته وإرادته.

فَائِدَة (٧٤)

الإخلاص: أن يخلص لله في أقواله وأفعاله وإراداته ونيته. وهذه هي الحنيفية ملة إبراهيم التي أمر الله بها عباده كلهم، ولا يقبل من أحد غيرها.

فَائِدَة (٧٥)

أعظم الذنوب عند الله إساءة الظن به، فإن المسيء به الظن قد ظن به خلاف كماله المقدس، وظن به ما يناقض أسماءه وصفاته.

فَائِدَة (٧٦)

الرب تعالىٰ وحده هو الذي يستحق كمال التعظيم والإجلال والتأله والخضوع والذل. وهذا خالص حقه، فمن أقبح الظلم أن يُعطِيَ حقَّه لغيره، أو يشرك بينه وبينه فيه.

فَائِدَة (٧٧)

المشرك المقر بصفات الرب خيرٌ من المعطل الجاحد لصفات كماله.

فَائِدَة (٧٨)

القول علىٰ الله بلا علم والشرك متلازمان.

فَائِدَة (٧٩)

المذنب إنما ضرره علىٰ نفسه، وأما المبتدع فضرره علىٰ النوع.

فَائِدَة (٨٠)

فتنة المبتدع في أصل الدين، وفتنة المذنب في الشهوة.

فَائِدَة (٨١)

المبتدع قد قعد للناس علىٰ صراط الله المستقيم يصدهم عنه، والمذنب ليس كذلك.

فَائِدَة (٨٢)

المبتدِع قادح في أوصاف الرب وكماله والمذنب ليس كذلك.

فَائِدَة (٨٣)

المبتدع مناقض لما جاء به الرسول، والعاصي ليس كذلك.

فَائِدَة (٨٤)

المبتدع يقطع علىٰ الناس طريق الآخرة، والعاصي بطيء السير بسبب ذنوبه.

فَائِدَة (٨٥)

تتفاوت درجات القتل بحسب قبحه، واستحقاق من قتله السعي في إبقائه ونصيحته. ولهذا كان أشد الناس عذابًا يوم القيامة من قتل نبيًّا، أو قتله نبيٌّ. ويليه من قتل إمامًا، أو عالمًا يأمر الناس بالقسط، ويدعوهم إلىٰ الله، وينصحهم في دينهم.

فَائِدَة (٨٦)

ما أوتي عبد بعد الإيمان أفضل من الفهم عن الله ورسوله، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

فَائِدَة (٨٧)

مفسدة الزنىٰ من أعظم المفاسد، وهي منافية لمصلحة نظام العالم في حفظ الأنساب، وحماية الفروج، وصيانة الحرمات، وتوقي ما يوقع أعظم العداوة والبغضاء بين الناس من إفساد كل منهم امرأة صاحبِه وابنتِه وأخته وأمه، وفي ذلك خراب العالم.

فَائِدَة (٨٨)

اللحظات هي رائد الشهوة ورسولها وحفظها أصل حفظ الفرج؛ فمن أطلق بصره أورده موارد الهلَكات.

فَائِدَة (٨٩)

النظر أصل عامة الحوادث التي تصيب الإنسان، فإن النظرة تولد خطرةً، ثم تولد الخطرةُ فكرةً، ثم تولد الفكرة شهوةً، ثم تولد الشهوة إرادةً، ثم تقوىٰ فتصير عزيمةً جازمة، فيقع الفعل، ولا بد، ما لم يمنع منه مانع.

فَائِدَة (٩٠)

من آفات النظر: أنه يورث الحسرات والزفرات والحرقات، فيرىٰ العبدُ ما ليس قادرًا عليه ولا صابرًا عنه.

وهذا من أعظم العذاب: أ ن ترىٰ ما لا صبر لك عن بعضه، ولا قدرة لك علىٰ بعضه.

فَائِدَة (٩١)

حبس اللحظات، أيسر من دوام الحسرات.

فَائِدَة (٩٢)

الخَطَرات: مبدأ الخير والشر، ومنها تتولد الإرادات والهمم والعزائم. فمن راعىٰ خَطَراته؛ ملك زمام نفسه، وقهر هواه. ومن غلبته خطراتُه، فهواه ونفسُه له أغلب، ومن استهان بالخطَرات؛ قادته قسرا إلىٰ الهلَكات.

فَائِدَة (٩٣)

أخس الناس همة وأوضعهم نفسًا من رضي من الحقائق بالأماني الكاذبة، واستجلبها لنفسه، وتحلىٰ بها، وهي -لعمر الله- رؤوس أموال المفلسين، ومتاجر البطالين. وهي قوت النفس الفارغة التي قد قنعت من الوصل بزورة الخيال، ومن الحقائق بكواذب الآمال.

فَائِدَة (٩٤)

[الأماني الكاذبة]: هي أضر شيء علىٰ الإنسان، وتتولد من العجز والكسل، وتولد التفريط والحسرة والندم.

فَائِدَة (٩٥)

أعلىٰ الفِكَرِ وأجلها وأنفعها ما كان لله والدار الآخرة.

فَائِدَة (٩٦)

إذا كان العبد، وهو في الصلاة، ليس له إلا ما عقل منها، فليس له من عمره إلا ما كان فيه بالله وله.

فَائِدَة (٩٧)

ورود الخاطر لا يضر، وإنما يضر استدعاؤه ومحادثته. فالخاطر كالمار علىٰ الطريق، فإن لم تستدعه وتركته مر وانصرف عنك، وإن استدعيته سحرك بحديثه وخدعه وغروره. وهو أخف شيء علىٰ النفس الفارغة الباطلة، وأثقل شيء علىٰ القلب والنفس الشريفة السماوية المطمئنة.

فَائِدَة (٩٨)

ركب الله سبحانه في الإنسان نفسا أمارة ونفسا مطمئنة، وهما متعاديتان، فكل ما خف علىٰ هذه ثقل علىٰ هذه، وكل ما التذت به هذه تألمت به الأخرىٰ.

فَائِدَة (٩٩)

ليس علىٰ النفس الأمارة أشق من العمل لله، وإيثار رضاه علىٰ هواها؛ وليس لها أنفع منه.

فَائِدَة (١٠٠)

ليس علىٰ النفس المطمئنة أشق من العمل لغير الله، وإجابة داعي الهوىٰ؛ وليس عليها أضر منه.

فَائِدَة (١٠١)

إن لم يفرغ القلب من الخواطر الردية لم يستقر فيه الخواطر النافعة؛ فإنها لا تستقر إلا في محل فارغ، كما قيل:

أَتَانِي هَوَاهَا قَبْلَ أَنْ أَعْرِفَ الْهَوَىٰ ** فَصَادَفَ قَلْبًا فَارِغًا فَتَمَكَّنَا

فَائِدَة (١٠٢)

الكمال في امتلاء القلب والسر من الخواطر والإرادات والفكر في تحصيل مراضي الرب تعالىٰ من العبد ومن الناس، والفكر في طرق ذلك والتوصل إليه.

فَائِدَة (١٠٣)

أنقص الناس أكثرهم خواطر وفكرًا وإرادات لحظوظه وهواه أين كانت.

فَائِدَة (١٠٤)

إذا أردت أن تستدل علىٰ ما في القلب، فاستدل عليه بحركة اللسان، فإنه يطلع ما في القلب، شاء صاحبه أم أبىٰ.

فَائِدَة (١٠٥)

من العجب أن الإنسان يهون عليه التحفظ والاحتراز من أكل الحرام والظلم والزنا والسرقة وشرب الخمر ومن النظر المحرم وغير ذلك، ويصعب عليه التحفظ من حركة لسانه.

فَائِدَة (١٠٦)

أيسر حركات الجوارح: حركة اللسان، وهي أضرها علىٰ العبد.

فَائِدَة (١٠٧)

الكلام أسيرك، فإذا خرج من فيك صرت أسيره.

فَائِدَة (١٠٨)

في اللسان آفتان عظيمتان، إن خلص من إحداهما لم يخلص من الأخرىٰ: آفة الكلام، وآفة السكوت. وقد يكون كل منهما أعظم إثمًا من الأخرىٰ في وقتها. فالساكت عن الحق شيطان أخرس عاصٍ لله مراءٍ مداهنٌ إذا لم يخف علىٰ نفسه، والمتكلم بالباطل شيطان ناطق عاصٍ لله. وأكثر الخلق منحرف في كلامه وسكوته، فهم بين هذين النوعين.

فَائِدَة (١٠٩)

أهل الوسط - وهم أهل الصراط المستقيم - كفوا ألسنتهم عن الباطل، وأطلقوها فيما يعود عليهم نفعه في الآخرة.

فَائِدَة (١١٠)

ولما كانت العثرة عثرتين: عثرة الرجل، وعثرة اللسان؛ جاءت إحداهما قرينة الأخرىٰ في قوله تعالىٰ: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ﴾ [الفرقان: ٦٣]، فوصفهم بالاستقامة في لفظاتهم وخطواتهم، كما جمع بين اللحظات والخطرات في قوله:﴿ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر: ١٩].

فَائِدَة (١١١)

ظهور الزنىٰ من أمارات خراب العالم، وهو من أشراط الساعة.

فَائِدَة (١١٢)

خص سبحانه حد الزنىٰ من بين الحدود بثلاث خصائص:

أحدها: القتل فيه أشنع القتلات، وحيث خففه فجمع فيه بين العقوبة علىٰ البدن بالجلد، وعلىٰ القلب بتغريبه عن وطنه سنة.

الثاني: أنه نهىٰ عباده أن تأخذهم بالزناة رأفة في دينه، بحيث تمنعهم من إقامة الحد عليهم. فإنه سبحانه من رأفته ورحمته بهم شرع هذه العقوبة، فهو

أرحم منكم، ولم تمنعه رحمته من أمره بهذه العقوبة، فلا يمنعكم أنتم ما يقوم بقلوبكم من الرأفة من إقامة أمره.

الثالث: أنه سبحانه أمر أن يكون حدهما بمشهد من المؤمنين، فلا يكون خلوة حيث لا يراهما أحد. وذلك أبلغ في مصلحة الحد وحكمة الزجر.

فَائِدَة (١١٣)

الطريق المانع من حصول هذا الداء [العشق]، أمران:

أحدهما: غض البصر، فإن النظرة سهم مسموم من سهام إبليس. ومن أطلق لحظاته دامت حسراته.

الثاني: اشتغال القلب بما يصده عن ذلك، ويحول بينه وبين الوقوع فيه. وهو إما خوف مقلق، أو حب مزعج. فمتىٰ خلا القلبُ من خوف ما فواته أضر عليه من حصول هذا المحبوب، أو خوف ما حصوله أضر عليه من فوات هذا المحبوب أو محبة ما هو أنفع له وخير له من هذا المحبوب، وفواته أضر عليه من فوات هذا المحبوب لم يجد بدًّا من عشق الصور.

فَائِدَة (١١٤)

في غض البصر عدة منافع:

أحدها: أنه امتثال لأمر الله الذي هو غاية سعادة العبد في معاشه ومعاده.

الثانية: أنه يمتنع من وصول أثر السهم المسموم الذي لعل فيه هلاك الىٰ قلبه.

الثالثة: أنه يورث القلب أُنسًا بالله وجمعيةً علىٰ الله؛ فإن إطلاق البصر يفرق القلب، ويشتته، ويبعده من الله. وليس علىٰ العبد شيء أضر من إطلاق البصر، فإنه يوقع الوحشة بين العبد وبين ربه.

الرابعة: أنه يقوي القلب ويفرحه، كما أن إطلاق البصر يضعفه ويحزنه.

الخامسة: أنه يكسب القلب نورًا، كما أن إطلاقه يكسبه ظلمة.

السادسة: أنه يورثه فراسة صادقة يميز بها بين المحق والمبطل والصادق والكاذب.

السابعة: أنه يورث القلب ثباتًا وشجاعة وقوة، فيجمع الله له بين سلطان البصيرة والحجة وسلطان القدرة والقوة، كما في الأثر: الذي يخالف هواه يفرَقُ الشيطانُ من ظله.

الثامنة: أنه يسد علىٰ الشيطان مدخله إلىٰ القلب، فإنه يدخل مع النظرة، وينفذ معها إلىٰ القلب أسرع من نفوذ الهواء في المكان الخالي، فيمثل له حسن صورة المنظور إليه، ويزينها، ويجعلها صنمًا يعكف عليه القلب.

التاسعة: أنه يفرغ القلب للفكرة في مصالحه والاشتغال بها، وإطلاق البصر يشتته عن ذلك، ويحول بينه وبينه، فينفرط عليه أموره، ويقع في اتباع هواه وفي الغفلة عن ذكر ربه.

العاشرة: أن بين العين والقلب منفذًا وطريقًا يوجب انفعال أحدهما عن الآخر، وأن يصلح بصلاحه ويفسد بفساده. فإذا فسد القلب فسد النظر، وإذا فسد النظر فسد القلب.

فَائِدَة (١١٥)

ليس للعبد في دنياه وآخرته أنفع من امتثال أوامر ربه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ. وما سعد من سعد في الدنيا والآخرة إلا بامتثال أوامره، وما شقي من شقي في الدنيا والآخرة إلا بتضييع أوامره.

فَائِدَة (١١٦)

إذا استنار القلبُ أقبلت وفود الخيرات إليه من كل ناحية، كما أنه إذا أظلم أقبلت سحائب البلاء والشر عليه من كل مكان.

فَائِدَة (١١٧)

الله سبحانه يجزي العبدَ علىٰ عمله بما هو من جنس عمله، ومن ترك لله شيئًا عوضه الله خيرًا منه، فإذا غض بصرَه عن محارم اللهِ عوضه اللهُ بأن يطلق نور بصيرته عوضًا عن حبسه بصره لله، ويفتح عليه باب العلم والإيمان والمعرفة والفراسة الصادقة المصيبة التي إنما تُنال ببصيرة القلب.

فَائِدَة (١١٨)

التعلق بالصور يوجب فساد العقل، وعَمَهَ البصيرة، وسكر القلب، كما قال القائل:

سَكْرَانُ سُكْرُ هَوًى وَسُكْرُ مُدَامَةٍ ** ومَتَىٰ إفاقَةُ مَنْ بِهِ سُكرانِ

فَائِدَة (١١٩)

تجد في المتبع لهواه من ذل النفس ووضاعتها ومهانتها وخستها وحقارتها، ما جعله الله سبحانه فيمن عصاه.

فَائِدَة (١٢٠)

جعل الله سبحانه العزَّ قرينَ طاعته، والذل قرين معصيته، فقال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، وقال: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

فَائِدَة (١٢١)

من أطاع اللهَ فقد والاه فيما أطاعه فيه، وله من العز بحسب طاعته، ومن عصاه فقد عاداه فيما عصاه فيه، وله من الذل بحسب معصيته.

فَائِدَة (١٢٢)

النفس لا تترك محبوبًا إلا لمحبوب أعلىٰ منه، أو خشية مكروهٍ حصولُه أضر عليها من فوات هذا المحبوب. وهذا يحتاج صاحبه إلىٰ أمرين إن فقدا أو أحدهما لم ينتفع بنفسه:

أحدهما: بصيرة صحيحة يفرق بها بين درجات المحبوب والمكروه، فيؤثر أعلىٰ المحبوبين علىٰ أدناهما، ويحتمل أدنىٰ المكروهين ليخلص من أعلاهما. وهذا خاصة العقل، ولا يعد عاقلًا من كان بضد ذلك، بل قد تكون

البهائم أحسن حالًا منه.

الثاني: قوة عزم وصبر يتمكن بها من هذا الفعل والترك. فكثيرًا ما يعرف الرجل قدر التفاوت، ولكن يأبىٰ له ضعف نفسه وهمته وعزيمته علىٰ إيثار الأنفع، من جشعه وحرصه ووضاعة نفسه وخسة همته. ومثل هذا لا ينتفع بنفسه، ولا ينتفع به غيره.

فَائِدَة (١٢٣)

لا يمكن أن يجتمع في القلب حبُّ المحبوب الأعلىٰ وعشقُ الصورِ أبدًا، بل هما ضدان لا يتلاقيان، بل لابد أن يخرج أحدُهما صاحبَه.

فَائِدَة (١٢٤)

المحبة الصادقة تقتضي توحيدَ المحبوب، وأن لا يشرك بينه وبين غيره في محبته.

فَائِدَة (١٢٥)

محبة الصور تفوت محبة ما هو أنفع للعبد منها، بل تفوت محبة ما ليس له صلاح ولا نعيم ولا حياة نافعة إلا بمحبته وحده.

فَائِدَة (١٢٦)

من أعرض عن محبة الله وذكره والشوق إلىٰ لقائه؛ ابتلاه بمحبة غيره، فيعذبه بها في الدنيا وفي البرزخ وفي الآخرة. فإما أن يعذبه بمحبة الأوثان، أو

بمحبة الصلبان، أو بمحبة النيران، أو محبة المردان، أ ومحبة النسوان، أو محبة الأثمان، أو محبة العُشَراء والخلان، أو محبة ما دون ذلك مما هو في غاية الحقارة والهوان.

فَائِدَة (١٢٧)

من لم يكن إلهه مالكه ومولاه، كان إلهه هواه.

فَائِدَة (١٢٨)

خاصية التعبد: الحب مع الخضوع والذل للمحبوب، فمن أحب شيئًا وخضع له فقد تعبد قلبه له.

فَائِدَة (١٢٩)

[مراتب الحب]

[المرتبة الأولىٰ]: العَلاقة، وسُمِّيت «علاقة»؛ لتعلق القلب بالمحبوب.

[المرتبة الثانية]: الصَّبَابة، وسُمِّيت بذلك؛ لانصباب القلب إلىٰ المحبوب.

[المرتبة الثالثة]: الغرام، وهو لزوم الحب للقلب لزومًا لا ينفك عنه.

[المرتبة الرابعة]: العشق، وهو إفراط المحبة؛ ولهذا لا يوصف به الربُّ تعالىٰ، ولا يُطلق في حقه.

[المرتبة الخامسة]: الشوق، وهو سفر القلب إلىٰ المحبوب أَحَثَّ السَّفرِ.

[المرتبة السادسة]: التَّتَيُّم، وهو آخر مراتبِ الحب، وهو تعبد المُحبِّ لمحبوبه.

[المرتبة السابعة]: الخُلَّةُ، وهي تتضمن كمالَ المحبة ونهايتها، بحيث لا يبقىٰ في قلب المحب سعةٌ لغير محبوبه، وهي منصبٌ لا يقبل المشاركة بوجه ما.

فَائِدَة (١٣٠)

المحب لا يزال يُكثر من النوافلِ حتىٰ يصيرَ محبوبًا لله، فإذا صار محبوبًا لله أوجبت محبةُ الله له محبةً أخرىٰ منه لله، فوق المحبة الأولىٰ؛ فشغلت هذه المحبةُ قلبَه عن الفكرة والاهتمام بغير محبوبه، وملكت عليه روحَه، ولم يبق فيه سعةٌ لغير محبوبه البتَّة.

فَائِدَة (١٣١)

متىٰ كان العبدُ بالله هانت عليه المشاقُّ، وانقلبت المخاوِفُ في حقِّه أمانًا، فبالله يهون كلُّ صعب، ويسهُل كلُّ عسير، ويقرّب كلُّ بعيد، وبالله تزول الهمومُ والغموم والأحزان.

فَائِدَة (١٣٢)

[المؤمن] ما أماته اللهُ -سبحانه- إلا لِيُحيِيَّه، ولا أمرضه إلا لِيصحَّه، ولا أفقره إلا ليغنِيَه، ولا منعه إلا ليعطِيَه، ولم يخرجه من الجنة في صلب أبيه إلا ليعيدَه إليها علىٰ أحسن أحواله، ولم يقل لأبيه: اخرج منها، إلا هو يريد أن يعيده إليها.

فَائِدَة (١٣٣)

حقيقة التعبد:الذُّلُّ والخضوع للمحبوب، ومنه قولهم: «طريقٌ مُعَبَّدٌ»، أي مذلَّلٌ، قد ذللته الأقدامُ، فالعبد هو الذي ذَلَّلَهُ الحبُّ والخضوع لمحبوبه.

فَائِدَة (١٣٤)

أشرف أحوالِ العبد ومقاماتِه هي العبودية، فلا منزل له أشرف منها.

فَائِدَة (١٣٥)

إذا والىٰ العبدُ ربَّه وحده أقام له الشفعاءَ، وعقد الموالاة بينه وبين عباده المؤمنين، فصاروا أولياءَه في الله، بخلاف من اتخذ مخلوقًا وليًّا من دون الله.

فَائِدَة (١٣٦)

حقيقة العبودية لا تحصل مع الإشراك بالله في المحبة، بخلاف المحبة لله، فإنها من لوازم العبودية وموجباتها.

فَائِدَة (١٣٧)

كل من أحب شيئًا مع الله، لا لله ولا من أجله ولا فيه، فقد اتخذه ندًّا من دون الله، وهذه محبة المشركين.

فَائِدَة (١٣٨)

الرَّبُّ تعالىٰ ما أمر بشيء ثم أبطله رأسًا، بل لابد أن يُبقِيَ بعضَه أو بدله، كما أبقىٰ شرعية الفداء، وكما أبقىٰ استحبابَ الصدقة بين يدي المناجاة، وكما أبقىٰ الخمس صلوات بعد رفع الخمسين وأبقىٰ ثوابها.

فَائِدَة (١٣٩)

ما يظنه بعض الغالِطِينَ أن المحبة أكمل من الخُلَّةِ، وأن إبراهيم خليل الله ومحمد حبيب الله، فمن جهله؛ فإن المحبة عامة، والخُلة خاصة، والخلة نهاية المحبة، وقد أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الله اتخذه خليلًا.

فَائِدَة (١٤٠)

العبد لا يترك ما يحبه ويهواه إلا لما يحبه ويهواه، لكن يترك أضعفَهما محبةً لأقواهما محبةً؛ كما أنه يفعل ما يكرهه لحصول ما محبتُه أقوىٰ عنده من كراهة ما يفعله، أو لخلاصه من مكروه كراهته عنده أقوىٰ من كراهة ما يفعله.

فَائِدَة (١٤١)

خاصِّيَة العقل إيثارُ أعلىٰ المحبوبين علىٰ أدناهما، وأيسر المكروهين علىٰ أقواهما.

فَائِدَة (١٤٢)

من الناس من يكون سُلطانَ شهوتِه أقوىٰ من سلطانِ عقلِه وإيمانه، فيقهر الغالِبُ الضعيفَ، ومنهم من يكون سلطانُ إيمانِه وعقله أقوىٰ من سلطان شهوتِه.

فَائِدَة (١٤٣)

أصلُ الشَّرِّ من ضعف الإدراك، وضعف النفس ودناءتها، وأصل الخير من كمال الإدراك، وقوة النفس وشرفها وشجاعتها.

فَائِدَة (١٤٤)

الحبُّ والإرادة أصلُ كلِّ فعلٍ ومبدؤه، والبغضُ والكراهة أصلُ كل ترك ومبدؤه. وهاتان القوتان في القلب أصل سعادةِ العبد وشقاوته.

فَائِدَة (١٤٥)

خاصَّةُ العقلِ: النظرُ في العواقب، فأعقلُ الناس من آثر لذتَه وراحتَه الآجلةَ الدائمة علىٰ العاجلة المُنقضِيَةِ الزائلة. وأسْفَهُ الخلقِ: من باع نعيمَ الأبد وطيبَ الحياة الدائمة واللذَّةَ العظمىٰ التي لا تنغيص فيها ولا نقص بوجه ما، بلذَّةٍ منغَّصةٍ مشوبَةٍ بالآلام والمخاوف، وهي سريعة الزوال وشيكة الانقضاء.

فَائِدَة (١٤٦)

قال بعض العلماء: فكرتُ فيما يسعىٰ فيه العقلاءُ، فرأيت سعيَهم كلَّه في مطلوبٍ واحد، وإن اختلفت طرقُهم في تحصيله؛ رأيتُهم جميعَهم إنما يسعون في دفع الهمِّ والغم عن نفوسهم، فهذا بالأكل والشرب، وهذا بالتجارة والكسب، وهذا بالنكاح، وهذا بسماع الغناء والأصواتِ المُطرِبَةِ، وهذا باللَّهو واللعب. فقلت: هذا المطلوب مطلوبُ العقلاءِ، ولكن الطُّرُق كلها غير موصلة إليه، بل لعل أكثرها إنما يوصل إلىٰ ضده. ولم أر في جميع هذه الطرق طريقًا موصلةً إلا الإقبال علىٰ الله ومعاملته وحده، وإيثار مرضاته علىٰ كل شيء.

فَائِدَة (١٤٧)

الولاية: عبارة عن موافقة الولي الحميد في محابِّه ومساخطه، ليست بكثرة صومٍ ولا صلاة ولا تمزق ولا رياضة.

فَائِدَة (١٤٨)

النُّفوس تحبُّ الراحةَ والدعة والرفاهية، وذلك شر لها لإفضائه إلىٰ فوات هذا المحبوب.

فَائِدَة (١٤٩)

العاقل لا ينظر إلىٰ لذَّةِ المحبوب العاجل فيؤثرها، وألم المكروه العاجل فيرغب عنه، فإن ذلك قد يكون شرًّا له؛ بل قد يجلب عليه غايةَ الألم، ويفوته أعظمَ اللذة، بل عقلاء الدنيا يتحملون المشاق المكروهة لما يعقبهم من اللذة بعدها، وإن كانت منقطِعَةً.

فَائِدَة (١٥٠)

الحبُّ أصلُ كلِّ عمل من حق وباطل، فأصل الأعمال الدينية: حب الله ورسوله، كما أن أصل الأقوال الدينية تصديقُ الله ورسوله.

فَائِدَة (١٥١)

كل إرادة تمنعُ كمالَ الحبِّ لله ورسوله وتزاحم هذه المحبة، أو شبهة تمنع كمالَ التصديق؛ فهي معارضة لأصل الإيمان أو مضعفة له.

فَائِدَة (١٥٢)

لا تصحُّ الموالاةُ إلا بالمعاداةِ.

فَائِدَة (١٥٣)

كلمة: «**لا إله إلا الله**» هي التي ورثها إمام الحنفاء لأتباعه إلىٰ يوم القيامة، وهي الكلمة التي قامت بها الأرضُ والسماوات، وفطر الله عليها جميعَ المخلوقات، وعليها أُسِّستِ المِلَّة، ونُصِبتِ القِبلة، وجُرِّدَتْ سيوف الجهاد، وهي محض حقِّ الله علىٰ جميع العباد، وهي الكلمة العاصِمة للدَّمِ والمال والذُّرِّيَّة في هذه الدار، والمُنجِيَةُ من عذاب القبر وعذاب النار، وهي المنشور الذي لا يدخل أحدٌ الجنةَ إلَّا به، والحبلُ الذي لا يصل إلىٰ الله من لم يتعلق بسببه، وهي كلمة الإسلام، ومِفتاحُ دارِ السلام، وبها انقسم الناس إلىٰ شقيٍّ وسعيد، ومقبولٍ وطريد، وبها انفصلتْ دارُ الكفر من دار الإيمان، وتميزتْ دارُ النعيم من دارِ الشقاء والهوان، وهي العمودُ الحامِل للفرض والسنة؛ «**وَمَنْ كانَ آخِرُ كَلامِهِ: لَا إِله إلَّا اللهُ، دَخَلَ الجنَّةَ**».

فَائِدَة (١٥٤)

المؤمن المخلص لله من أطيب الناس عيشًا، وأنعمهم بالًا، وأشرحهم صدرًا، وأسرهم قلبًا، وهذه جَنةٌ عاجلة قبل الجنةِ الآجلة.

فَائِدَة (١٥٥)

كلما كان وجودُ الشيء أنفعَ للعبد وهو إليه أحوج، كان تألُّمُه بفقده أشد. وكلما كان عدمُه أنفع له، كان تألمه بوجوده أشد.

فَائِدَة (١٥٦)

لا شيء علىٰ الإطلاق أنفع للعبد من إقباله علىٰ الله، واشتغاله بذكره وتنعمه بحبه، وإيثاره لمرضاته؛ بل لا حياة له ولا نعيم ولا سرور ولا بهجة إلا بذلك.

فَائِدَة (١٥٧)

أعظمُ أنواعِ المحبة المذمومة: المحبة مع الله، التي يسوي المحبُّ فيها بين محبته لله ومحبته للنِّدِّ الذي اتخذه من دونه.

فَائِدَة (١٥٨)

أعظمُ أنواعِ [المحبَّةِ] المحمودة: محبةُ الله وحده، ومحبة ما أحب، وهذه المحبة هي أصل السعادة ورأسها، التي لا ينجو أحدٌ من العذاب إلا بها.

فَائِدَة (١٥٩)

المحبة المذمومة الشِّركِيّة هي أصل الشقاوة ورأسها، التي لا يبقىٰ في العذاب إلَّا أهلُها.

فَائِدَة (١٦٠)

أهل المحبة الذين أحبوا الله، وعبدوه وحده لا شريك له، لا يدخلون النار، ومن دخلها منهم بذنوبه فإنه لا يبقىٰ فيها منهم أحد.

فَائِدَة (١٦١)

أصل دعوة جميع الرسل -من أولهم إلىٰ آخرهم- إنما هو عبادة الله وحده لا شريك له، المتضمنة لكمال حبه، وكمال الخضوع والذل له، والإجلال والتعظيم، ولوازم ذلك من الطاعة والتقوىٰ.

فَائِدَة (١٦٢)

محبة الرب تعالىٰ تختص عن محبة غيره في قدرها وصفتها وإفراده سبحانه بها، فإن الواجب له من ذلك أن يكون أحبَّ إلىٰ العبد من ولده ووالده، بل من سمعه وبصره ونفسه التي بين جنبيه؛ فيكون إلهه الحق ومعبوده أحب إليه من ذلك كله.

فَائِدَة (١٦٣)

الشيء قد يحب من وجهٍ دون وجه، وقد يحب لغيره، وليس شيءٌ يحب لذاته من كل وجه إلَّا اللهُ وحده، ولا تصلح الألوهية إلا له، ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، والتأله هو المحبة، والطاعة، والخضوع.

فَائِدَة (١٦٤)

كل حركة في العالم العلوي والسفلي فأصلها المحبة، فهي علَّتها الفاعلية والغائية.

فَائِدَة (١٦٥)

لولا الحبُّ ما دارتِ الأفلاكُ، ولا تحركتِ الكواكبُ النَّيِّراتُ، ولا هبتِ الرياح المسخرات، ولا مرتِ السحب الحاملات، ولا تحركتِ الأجنة في بطون الأمهات، ولا انصاع عن الحب أنواعُ النبات، ولا اضطربتْ أمواجُ البحار الزاخرات، ولا تحركتِ المُدبِّرات والمُقسِّماتُ، ولا سبحتْ بحمد فاطرِها الأَرَضون والسماوات، وما فيها من أنواع المخلوقات؛ فسبحان من تسبحه السماوات السبع والأرض ومن فيهن، ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

فَائِدَة (١٦٦)

كل حيٍّ له إرادةٌ ومحبة وعمل بحسبه، وكل متحركٍ فأصل حركته المحبة والإرادة.

فَائِدَة (١٦٧)

لا صلاح للموجودات إلا بأن تكون حركاتها ومحبتها لفاطرها وبارئها وحده، كما لا وجود لها إلا بإبداعه وحده.

فَائِدَة (١٦٨)

أصل فساد العالَم إنما هو من اختلاف الملوك والخلفاء؛ ولهذا لم يطمع أعداءُ الاسلام فيه في زمنٍ من الأزمنة إلا في زمنِ تعدد ملوك المسلمين واختلافهم، وانفراد كلٍّ منهم ببلاد، وطلب بعضهم العلو علىٰ بعض.

فَائِدَة (١٦٩)

صلاح السماوات والأرض واستقامتُهما وانتظام أمر المخلوقات علىٰ أتم نظامٍ من أظهر الأدلةِ علىٰ أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو علىٰ كل شيء قدير؛ وأن كلَّ معبود من لدن عرشه إلىٰ قرار أرضه باطلٌ إلا وجهه الأعلىٰ.

فَائِدَة (١٧٠)

المحبة لها آثارٌ وتوابع ولوازم وأحكام، سواء كانت محمودة أو مذمومة، نافعة أو ضارة، من الذوق، والوجد، والحلاوة، والشوق، والأنس، والاتصال بالمحبوب والقرب منه، والانفصال عنه والبعد منه، والصد والهجران، والفرح والسرور، والبكاء والحزن، وغير ذلك من أحكامها ولوازمها.

فَائِدَة (١٧١)

المحبة المحمودةُ هي المحبة النافعة التي تجلب لصاحبها ما ينفعه في دنياه وآخرته، وهذه المحبة هي عنوان سعادتِه، والضارةُ هي التي تجلب لصاحبها ما يضره في دنياه وآخرته، وهي عنوان شقاوته.

فَائِدَة (١٧٢)

الحي العاقل لا يختار محبةَ ما يضره ويشقيه، وإنما يصدر ذلك عن جهل وظلم، فإن النفس قد تهوىٰ ما يضرها ولا ينفعها، ذلك ظلم من الإنسان لنفسه،

إما بأن تكون جاهلَةً بحال محبوبها، بأن تهوىٰ الشيء وتحبَّه غير عالمةٍ بما في محبته من المضرة، وهذا حال من اتبع هواه بغير علم؛ وإما عالمةً بما في محبته من المضرة، لكن تُوثِر هواها علىٰ علمها؛ وقد تتركب محبتُها من أمرين: اعتقاد فاسد، وهوىٰ مذموم، وهذا حال من اتبع الظن وما تهوىٰ الأنفس.

فَائِدَة (١٧٣)

لا تقع المحبةُ الفاسدة إلا من جهلٍ واعتقادٍ فاسد، أو هوًىٰ غالب، أو ما تركب من ذلك، وأعان بعضه بعضًا، فتتفق شبهة يشتبه بها الحق بالباطل تزين له أمر المحبوب، وشهوة تدعوه إلىٰ حصوله، فيتساعد جيش الشبهة والشهوة علىٰ جيش العقل والإيمان، والغلبة لأقواهما.

فَائِدَة (١٧٤)

المحبة النافعة المحمودة، التي هي عُنوانُ سعادةِ العبد، توابِعُها كلها نافعة له، حكمها حكم متبوعِها، فإن بكىٰ نفَعَه، وإن حزن نفعه، وإن فرح نفعه، وإن انقبض نفعه، وإن انبسط نفعه؛ فهو يتقلب منازل المحبة وأحكامها في مزيد وربح وقوة.

فَائِدَة (١٧٥)

المحبة الضارة المذمومة، توابعُها وآثارها كلها ضارة لصاحبها، مبعدة له من ربه، كيفما تقلب في آثارها ونزل في منازلها فهو في خسارة وبعد.

فَائِدَة (١٧٦)

كل ما تولَّدَ عن الطاعة فهو زيادةٌ لصاحبه وقربة، وكلُّ ما تولد عن المعصية فهو خسران لصاحبه وبعدٌ.

فَائِدَة (١٧٧)

ما شرعه سبحانه وأمر به يحبه ويرضاه، وما نهىٰ عنه فإنه يكرهه ويبغضه لمنافاته لما يحبه ويرضاه، فهو يحب ضده.

فَائِدَة (١٧٨)

[الدواعي القوية لاستجابة يوسف عليه السلام لطلب امرأة العزيز ولكنَّ اللهَ -سبحانه- عصمه]

أحدها: ما ركَّبه الله سبحانه في طبع الرجل من ميله إلىٰ المرأة.

الثاني: أن يوسف عليه السلام كان شابًّا، وشهوة الشباب وحدته أقوىٰ.

الثالث: أنه كان عزبًا ليس له زوجة ولا سُرِّيَةً تكسِر شدةَ الشهوة.

الرابع: أنه كان في بلادِ غربةٍ يتأتىٰ للغريب فيها من قضاء الوطر ما لا يتأتىٰ له في وطنه بين أهله ومعارفه.

الخامس: أن المرأة كانت ذاتَ منصبٍ وجمال، بحيث إن كل واحد من هذين الأمرين يدعو إلىٰ مواقَعتِها

السادس: أنها غيرُ ممتنعة ولا أبِيَّة.

السابع: أنها طلبتْ وأرادت وراودت وبذلتِ الجهد، فكفته مؤنَةَ الطلب وذلَّ الرغبة إليها، بل كانت هي الراغبة الذليلة، وهو العزيز المرغوب إليه.

الثامن: أنه في دارها وتحت سلطانها وقهرها بحيث يخشىٰ إن لم يطاوعها من أذاها له؛ فاجتمع داعي الرغبة والرهبة.

التاسع: أنه لا يخشىٰ أن تنمَّ عليه هي ولا أحد من جهتها، فإنها هي الطالبة والراغبة، وقد غلَّقتِ الأبواب، وغيَّبتِ الرُّقَباءَ.

العاشر: أنه كان في الظاهر مملوكًا لها في الدار بحيث يدخل ويخرج ويحضر معها ولا ينكر عليه، فكان الأنْسُ سابقًا علىٰ الطلب، وهو من أقوىٰ الدواعي.

الحادي عشر: أنها استعانت عليه بأئمة المكر والاحتيال، فأرته إياهن، وشكَتْ حالَها إليهن، لتستعين بهن عليه.

الثاني عشر: أنها تواعدته بالسجن والصغار، وهذا نوع إكراهٍ؛ إذ هو تهديد ممن يغلب علىٰ الظن وقوع ما هدد به؛ فيجتمع داعي الشهوة وداعي السلامة من ضيق السجن والصَّغارِ.

الثالث عشر: أن الزوج لم يظهر منه من الغيرةُ والنَّخوةُ ما يفرق به بينهما، ويبعد كلًّا منهما عن صاحبه! بل كان غاية ما قابلهما به أن قال ليوسف: ﴿أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ﴾، وللمرأة: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَٰطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٢٩]، وشدة الغيرة في الرجل من أقوىٰ الموانع، وهذا لم يظهر منه غيرةٌ.

فَائِدَة (١٧٩)

القلب إذا خلَص وأخلصَ عملَه لله، لم يتمكن منه عشقُ الصور، فإنه إنما يتمكن من قلب فارغ، كما قال:

..... ** فصادَفَ قَلْبًا خَالِيًا فتَمَكَّنَا

فَائِدَة (١٨٠)

العقل والشرع يوجبان تحصيلَ المصالح وتكميلها وإعدام المفاسد وتقليلها.

فَائِدَة (١٨١)

[مفاسد العشق]

أحدها: الاشتغال بحب المخلوق وذكرِه عن حب الربِّ تعالىٰ وذكرِه؛ فلا يجتمع في القلب هذا وهذا إلا ويقهَرُ أحدُهما صاحبَه، ويكون السلطانُ والغلبة له.

الثاني: عذاب قلبه بمعشوقه، فإن من أحب شيئًا غير الله عُذِّب به، ولابد.

الثالث: أن العاشق قلبُه أسيرٌ في قبضة معشوقه، يسومه الهوان.

الرابع: أنه يشتغل به عن مصالح دينه ودنياه، فليس شيءٌ أضيعَ لمصالح الدين والدنيا من عشق الصور.

الخامس: أن آفاتِ الدنيا والآخرة أسرعُ إلىٰ عشاق الصور من النار في يابس الحطب.

السادس: أنه إذا تمكن من القلب واستحكم وقوي سلطانُه أفسد الذِّهنَ، وأحدث الوسواسَ.

السابع: أنه ربما أفسد الحواس أو بعضها إما فسادًا معنويًّا أ وصوريًّا.

الثامن: أن العشق هو الإفراط في المحبة بحيث يستولي المعشوقُ علىٰ قلب العاشق حتىٰ لا يخلُوَ من تخيله وذكره والفكر فيه، بحيث لا يغيب عن خاطره وذهنه.

فَائِدَة (١٨٢)

[العشق] إذا تمكن من القلب واستحكم وقوي سلطانُه أفسد الذهنَ، وأحدث الوسواس.

فَائِدَة (١٨٣)

القلب كلما قرب من العشق وقوي اتصالُه به، بَعُدَ من الله، فأبعد القلوب من الله قلوبُ عشَّاقِ الصور.

فَائِدَة (١٨٤)

إذا بَعُدَ القلبُ من الله طرقَتْه الآفاتُ من كل ناحية، فإن الشيطان يتولاه؛ ومن تولاه عدوُّه واستولىٰ عليه لم يألُهُ وبالًا، ولم يدع أذًىٰ يمكنه إيصاله إليه إلا أوصله.

فَائِدَة (١٨٥)

كان الصحابةُ الذين دخلوا في الإسلام بعد الكفر خيرًا من الذين ولدوا في الإسلام، قال عمر بن الخطاب: إنما تنقض عُرىٰ الإسلام عروةً عروة إذا ولِدَ في الاسلام من لم يعرف الجاهلية.

فَائِدَة (١٨٦)

العشق مبادئُه سهلة حلوة، وأوسطُه همٌّ وشغلُ قلبٍ وسقم، وآخرُه عطَبٌ وقتل، إن لم يتداركه عناية من الله.

فَائِدَة (١٨٧)

العاشق له ثلاث مقامات: مقام ابتداء، ومقام توسط، ومقام انتهاء.

فأما مقام ابتدائه: فالواجب عليه فيه مدافعتُه بكل ما يقدر عليه، إذا كان الوصولُ إلىٰ معشوقه متعذرًا قدرًا، أو شرعًا، فإن عجز عن ذلك، وأبىٰ قلبُه إلا السفر إلىٰ محبوبه -وهذا مقام التوسط والانتهاء- فعليه كتمانُ ذلك، وأن لا يفشِيَه إلىٰ الخلق، ولا يشبب بمحبوبه ويهتكه بين الناس، فيجمع بين الشرك والظلم؛ فإن الظلم في هذا الباب من أعظم أنواع الظلم، وربما كان أعظمَ ضررًا علىٰ المعشوق وأهله من ظلمه في ماله؛ فإنه يعرِّض المعشوقَ بتهتكه في عشقه إلىٰ وقوع الناس فيه وانقسامِهم إلىٰ مصدِّقٍ ومكذِّبٍ، وأكثرُ الناس يصدق في هذا الباب بأدنىٰ شبهة.

فَائِدَة (١٨٨)

كم للعشق من قتيل من الجانبين! وكم قد أزال من نعمةٍ، وأفقَرَ من غِنًىٰ، وأسقط من مرتبةٍ، وشتت من شمل.

فَائِدَة (١٨٩)

أول أسباب العشق: الاستحسانُ، سواء تولد عن نظرٍ أو سماعٍ، فإن لم يقارنه طمعٌ في الوصال، وقارنه الإياس من ذلك؛ لم يحدث له العشق، فإن اقترن به الطمعُ، فصرفه عن فكره ولم يشتغل قلبُه به؛ لم يحدث له ذلك.

فَائِدَة (١٩٠)

أنفع المحبة علىٰ الإطلاق وأوجبُها وأعلاها وأجلُّها: محبةُ من جُبِلتِ القلوب علىٰ محبته، وفُطِرتِ الخليقةُ علىٰ تألُّهِهِ، وبها قامت الأرض والسماوات، وعليها فطرتِ المخلوقات، وهي سر شهادة أن لا إله إلا الله.

فَائِدَة (١٩١)

«الإله»: هو الذي تألَهُهُ القلوبُ بالمحبة والإجلال والتعظيم والذل والخضوع، وتعبده.

فَائِدَة (١٩٢)

العبادة لا تصح إلا له وحده، و**«العبادة»**: هي كمال الحب مع كمال الخضوع والذل.

فَائِدَة (١٩٣)

المحبة لها داعيان: الجمال والإجمال، والربُّ تعالىٰ له الكمال المطلق من ذلك، فإنه جميل يحب الجمال، بل الجمال كله له، والإجمال كله منه، فلا يستحق أن يحبَّ لذاته من كل وجه سواه.

فَائِدَة (١٩٤)

الولاية أصلُها الحب، فلا موالاة إلَّا بحبٍّ؛ كما أن العداوة أصلها البغض. والله وليُّ الذين آمنوا، وهم أولياؤه، فهم يوالونه بمحبتهم له، وهو يواليهم بمحبته لهم؛ فالله يوالي عبده بحسب محبته له.

فَائِدَة (١٩٥)

كمال اللَّذَّةِ والفرح والسرور ونعيم القلب وابتهاج الروح تابع لأمرين:

أحدهما: كمال المحبوب في نفسه وجماله، وأنه أولىٰ بإيثار الحب من كل ما سواه.

والأمر الثاني: كمال محبتِه، واستفراغُ الوسعَ في حبه، وإيثار قربه والوصول إليه علىٰ كل شيء.

فَائِدَة (١٩٦)

كلُّ عاقلٍ يعلم أن اللذة بحصول المحبوب بحسب قوة محبته، فكلما كانتِ المحبةُ أقوىٰ؛ كانت لذَّةُ المُحِبِّ أكمل، فلذةُ من اشتد ظمؤُهُ: بإدراك

الماء الزلال، ومن اشتد جوعُه: بأكل الطعام الشهي، ونظائرُ ذلك علىٰ حسب شوقِه وشدَّةِ إرادته ومحبته.

فَائِدَة (١٩٧)

أعظم لذات الدنيا علىٰ الإطلاق، وهو لذة معرفته سبحانه ولذة محبته، فإن ذلك هو جنة الدنيا ونعيمها العالي؛ ونسبة لذاتها الفانية إليه كتفْلَةٍ في بحر، فإن الروح والقلب والبدن إنما خلق لذلك.

فَائِدَة (١٩٨)

أطيب ما في الدنيا: معرفتُه ومحبتُه، وألذُّ ما في الجنة: رؤيتُه ومشاهدته، فمحبته ومعرفته قرَّةُ العيون، ولذة الأرواح، وبهجة القلوب، ونعيم الدنيا وسرورها.

فَائِدَة (١٩٩)

محبة [اللهِ ورسولِه] هي التي تلطِّفُ الرُّوحَ وتخفِّفُ أثقالَ التكاليف، وتسخي البخيلَ، وتشجع الجبانَ، وتصفي الذِّهنَ، وتروض النفسَ، وتطيب الحياةَ علىٰ الحقيقة، لا محبَّةَ الصورِ المحرمة.

فَائِدَة (٢٠٠)

إذا أردت أن تعلم ما عندك وعند غيرِك من محبةِ الله، فانظر إلىٰ محبة القرآن من قلبك، والْتِذاذِك بسماعه أعظم من التذاذ أصحاب الملاهي والغناء

المطرب بسماعهم؛ فإنه من المعلوم أن من أحب محبوبًا كان كلامه وحديثه أحب شيء إليه، كما قيل:

إِنِ كنْتَ تزْعُمُ حُبِّي فلِمَ هَجرْتَ كتابِي
أمَا تَأَمَّلْتَ ما فيهِ مِنْ لذِيذِ خِطَابِي

فَائِدَة (٢٠١)

لمحبِّي القرآنِ من الوجْدِ والذَّوْقِ واللذة والحلاوة والسرور أضعافُ ما لمحبي السماع الشيطاني.

التقاسيم والأنواع
في كتاب الداء والدواء

[أقسام الخلق]

* الله خلق خلقه قسمين: عليَةً وسِفْلةً، وجعل عِلِّيينَ مُستقَرَّ العِليةِ، وأسفلَ سافلين مُستقَرَّ السِّفْلَةِ، وجعل أهل طاعته الأعلَين في الدنيا والآخرة، وأهل معصيته الأسفلِين في الدنيا والآخرة.

[أقسام الناس في معرفة الحق من الباطل، وإيثاره عليه]

انقسم الناس في هذا المقام أربعةَ أقسام:

[القسم الأول]: [من عنده] الكمال الإنساني [والذي] مداره علىٰ أصلين: معرفة الحق من الباطل، وإيثاره عليه، فهؤلاء أشرفُ أقسام الخلق وأكرمهم علىٰ الله.

[القسم الثاني]: عكس هؤلاء؛ لا بصيرةَ في الدين، ولا قوةَ علىٰ تنفيذ الحق، وهم أكثر هذا الخلق الذين رؤيتهم قَذَىٰ العيونِ، وحمَّىٰ الأرواحِ، وسقمُ القلوبِ، يضيقون الديار، ويغلون الأسعارَ، ولا يستفاد بصحبتهم إلا العار والشنار.

القسم الثالث: من له بصيرةٌ بالحق ومعرفةٌ به، لكنه ضعيفٌ لا قوةَ له علىٰ تنفيذه، ولا الدعوة إليه، وهذا حال المؤمنِ الضعيفِ، والمؤمنُ القوِيُّ خيرٌ

وأحبُّ إلىٰ الله منه.

القسم الرابع: من له قوةٌ وهمة وعزيمة، لكنه ضعيفُ البصيرة في الدين، لا يكاد يميز بين أولياءِ الرحمن وأولياء الشيطان، بل يحسب كلَّ سوداء تمرةً، وكلَّ بيضاءَ شحمةً؛ يحسب الورم شحمًا، والدواء النافع سُمًّا، وليس في هؤلاء من يصلح للإمامة في الدين، ولا هو موضعًا لها سوىٰ القسم الأول؛ قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، فأخبر سبحانه أن بالصبر واليقين نالوا الإمامة في الدين.

أنواع عقوبات الذنوب

عقوبات الذنوب نوعان: **شرعية، وقدرية.**

فإذا أقيمتِ الشرعيةُ، رُفِعتِ العقوبات القدرية أو خففتها. ولا يكاد الربُّ تعالىٰ يجمع علىٰ عبده بين العقوبتين، إلَّا إذا لم تَفِ إحداهُما برفع موجب الذنبِ، ولم تكف في زوال دائه. وإذا عُطِّلت العقوباتُ الشرعية استحالت قدرِيَّةً، وربما كانت أشدَّ من الشرعية، وربما كانت دونها، ولكنها تعم، والشرعية تخص، فإن الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لا يعاقب شرعًا إلا من باشر الجناية أو تسبب إليها.

وأما العقوبة القدرية: فإنها تقع عامة وخاصة، فإن المعصية إذا خفيت لا تضر إلا صاحِبَها، وإذا أُعلِنت ضرتِ الخاصَّةَ والعامَّةَ. وإذا رأىٰ الناسُ المنكرَ فاشتركوا في ترك إنكاره أوشك أن يعمهم الله بعقابه.

* * *

أنواعُ العُقوبَةِ الشَّرعِيَّةِ

١- القتل.

٢- القطع.

٣- الجلد.

أقْسامُ الذُّنوبِ

الذنوب ثلاثة أقسام:

[الأول]: فيه الحدُّ، فهذا لم يَشرع فيه كفارةً اكتفاءً بالحد.

[الثاني]: لم يرتب عليه حدًّا، فشرَع فيه الكفارةَ، كالوطء في نهار رمضان، والوطء في الإحرام، والظهار، وقتل الخطإ، والحنث في اليمين، وغير ذلك.

[الثالث]: لم يرتب عليه حدًّا ولا كفارة، وهو نوعان:

أحدهما: ما كان الوازع عنه طبيعيًّا كأكل العذرة، وشرب البول والدم.

والثاني: ما كانت مفسدتُه أدنىٰ من مفسدة ما رتب عليه الحد كالنظر، والقبلة، واللمس، والمحادثة، وسرقة فِلْسٍ، ونحوِ ذلك.

* * *

الأنواعُ التي تُشرَعُ فيها الكفَّارَةُ

شرَعَ الكفارةَ في ثلاثةِ أنواعٍ:

أحدها: ما كان مباحَ الأصل ثم عرض تحريمُه، فباشره في الحال التي عرض فيها التحريم، كالوطء في الإحرام، والصيام، وطردِهِ الوطْءَ في الحيض والنفاس، بخلافِ الوطءِ في الدبر؛ ولهذا كان إلحاقُ بعض الفقهاء له بالوطء في الحيض لا يصح، فإنه لا يباح في وقتٍ دون وقت، فهو بمنزلة التَّلَوُّطِ وشربِ المسكر.

النوع الثاني: ما عقده لله من نذر، أو بالله من يمين، أو حرمه اللهُ ثم أراد حلَّه؛ فشرع اللهُ سبحانه حلَّه بالكفارة، وسماها تحلة. وليست هذه الكفارة ماحية لهتك حرمة الاسم بالحنث كما ظنه بعض الفقهاء، فإن الحنث قد يكون واجبًا، وقد يكون مستحبًّا، وقد يكون مباحًا؛ وإنما الكفارة حِلٌّ لما عقده.

النوع الثالث: ما تكون فيه جابرةً لما فات، ككفارة قتل الخطإ، وإن لم يكن هناك إثم، وكفارةِ قتل الصيد خطأ، فإن ذلك من باب الجوابر. والنوعُ الأول من باب الزواجِرِ، والنوعُ الوسط من باب التحلة لما منعه العقد.

ولا يجتمع الحدَّ والتعزيرُ في معصية، بل إن كان فيها حدٌّ اكتفي به، وإلا اكتفىٰ بالتعزير. ولا يجتمع الحدُّ والكفارة في معصية، بل كل معصيةٍ فيها حدٌّ فلا كفارة فيها، وما فيه كفارة فلا حد فيه.

❊ ❊ ❊

أنواعُ العُقوباتِ القَدَرِيَّةِ

العقوبات القدرية نوعان: نوعٌ علىٰ القلوبِ والنُّفوس، ونوعٌ علىٰ الأبدان والأموال.

أنواعُ العُقوباتِ القَدرِيَّةِ على القُلوبِ

[العقوبات] التي على القلوب نوعان:

أحدهما: آلآم وجودية يضرب بها القلب.

والثاني: قطع المواد التي بها حياتُه وصلاحه عنه. وإذا قطعت عنه حصل له أضدادها.

وعقوبة القلوب أشد العقوبتين، وهي أصل عقوبة الأبدان، وهذه العقوبة تقوىٰ وتتزايد حتىٰ تسري من القلب إلىٰ البدن، كما يسري ألمُ البدن إلىٰ القلب، فإذا فارقتِ النفسُ البدنَ صار الحكمُ متعلقًا بها، فظهرت عقوبةُ القلب حينئذ، وصارت عيانيةً ظاهرة، وهي المسماة بعذاب القبر، ونسبته إلىٰ البرزخ كنسبة عذاب الأبدان إلىٰ هذه الدار.

أنواعُ العقوباتِ القدرِيَّةِ على الأبْدانِ

[العقوبات] التي علىٰ الأبدان نوعان: نوع في الدنيا، ونوع في الأخرىٰ. وشدتها ودوامها بحسب مفاسد ما رُتِّبت عليه في الشدة والخفة.

* * *

أنواعُ وقايَةِ السَّيِّئاتِ

وقاية السيئات نوعان:

أحدهما: وقاية فعلها بالتوفيق، فلا تصدر منه.

والثاني: وقاية جزائِها بالمغفرة، فلا يعاقب عليها.

نَوْعَا أصْلِ الذُّنوبِ

أصلها نوعان: ترك مأمور، وفعل محظور. وهما الذنبان اللذان ابتلىٰ اللهُ سبحانه بهما أبوي الجن والأنس. وكلاهما ينقسم باعتبار محله إلىٰ ظاهر علىٰ الجوارح، وباطن في القلب.

أقسامُ الذُّنوبِ

الذنوب تنقسم إلىٰ أربعة أقسام: ملَكِية، وشيطانية، وسَبُعِيَّة، وبهيمية؛ ولا تخرج عن ذلك.

الذنوب المَلَكِيَّة: أن يتعاطىٰ ما لا يصلح له من صفات الربوبية كالعظمة، والكبرياء، والجبروت، والقهر، والعلو، واستعباد الخلق، ونحو ذلك. ويدخل في هذا الشركُ بالرب تعالىٰ، وهو نوعان:

شرك به في أسمائه وصفاته، وجعل آلهةٍ أخرىٰ معه.

وشرك به في معاملته. وهذا الثاني قد لا يوجب دخولَ النار، وإن أحبط العمل الذي أشرك فيه مع الله غيره.

وهذا القسم أعظم أنواع الذنوب، ويدخل فيه القولُ علىٰ الله بلا علمٍ في

خلقه وأمره. فمن كان من أهل هذه الذنوب فقد نازع اللهَ سبحانه ربوبيته وملكه، وجعل له ندًّا. وهذا أعظمُ الذنوب عند الله، ولا ينفع معه عملٌ.

[الذنوب] الشَّيطانية: فالتشبه بالشيطان في الحسد، والبغي، والغشِّ، والغلِّ، والخداع، والمكر، والأمر بمعاصي الله وتحسينها، والنهي عن طاعته، وتهجينها، والابتداع في دينه، والدعوة إلىٰ البدع والضلال. وهذا النوع يلي النوعَ الأولَ في المفسدة، وإن كانت مفسدتُه دونه.

[الذنوب] السَّبُعِيَّة: فذنوب العدوان، والغضب، وسفك الدماء، والتوثب علىٰ الضعفاء والعاجزين. ويتولد منها أنواعُ أذىٰ النوع الإنساني، والجرأة علىٰ الظلم والعدوان.

الذنوب البهيمية: فمثل الشره والحرص علىٰ قضاء شهوة البطن والفرج. ومنها يتولد الزنىٰ، والسرقةُ، وأكلُ أموال اليتامىٰ، والبخل، والشحُّ، والجبن، والهلع، والجزع، وغير ذلك.

وهذا القسم أكثر ذنوب الخلق لعجزهم عن الذنوب السبُعية والملكية. ومنه يدخلون إلىٰ سائر الأقسام، فهو يجرهم إليها بالزمام، فيدخلون منه إلىٰ الذنوب السبعية، ثم إلىٰ الشيطانية، ثم إلىٰ منازعة الربوبية والشرك في الوحدانية. ومن تأمل هذا حق التأمل تبين له أن الذنوب دهليز الشرك، والكفر، ومنازعة الله ربوبيته.

❊ ❊ ❊

أنواعُ الشِّركِ بالرَّبِّ تعالى

نوعان:

[الأول]: شركٌ به في أسمائه وصفاته، وجعل آلهةٍ أخرىٰ معه.

[الثاني]: شرك به في معاملته. وهذا الثاني قد لا يوجب دخولَ النار، وإن أحبط العمل الذي أشرك فيه مع الله غيره.

أنواع الشرك

الشرك شركان:

[الأول]: شرك يتعلق بذات المعبود وأسمائه وصفاته وأفعاله.

[الثاني]: شرك في عبادته ومعاملته، وإن كان صاحبه يعتقد أنه سبحانه لا شريك له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله.

أنواعُ الشِّركِ المتعلِّقِ بذاتِ المعبودِ وأسمائِه وصفاتِه وأفعالِه

نوعان:

أحدهما: شرك التعطيل، وهو أقبح أنواع الشرك، كشرك فرعون، إذ قال: وما رب العالمين؟ وقال لهامان: ابْنِ لي صرحًا، لعلي أطَّلِع إلىٰ إله موسىٰ، وإني لأظنه من الكاذبين.

والشرك التعطيل متلازمان؛ فكل مشركٍ مُعطِّلٌ، وكل معطِّلٍ مشركٌ؛ لكن الشرك لا يستلزم أصلَ التعطيل، بل قد يكون المشرك مقرًّا بالخالق سبحانه وصفاته، ولكنه عطل حق التوحيد.

وأصل الشرك وقاعدته التي يرجع إليها هو التعطيل.

ومن هذا: شرك طائفةِ أهلِ وَحْدَةِ الوجود الذين يقولون: ما ثَمّ خالق ومخلوق، ولا ههنا شيئان، بل الحق المنزه هو عين الخلق المشبه.

ومنه: شرك الملاحدةُ القائلين بقدم العالم وأبديته، وأنه لم يكن معدومًا أصلًا، بل لم يزل ولا يزال، والحوادث بأسرها مستنِدَةٌ عندهم إلىٰ أسبابٍ ووسائِطَ اقتضت إيجادها، يسمونها العقولَ والنفوس.

ومن هذا: شرك من عطل أسماءَ الربِّ تعالىٰ وأوصافه وأفعاله من غلاة الجهمية والقرامطة، فلم يثبتوا له اسمًا ولا صفةً، بل جعلوا المخلوقَ أكمل منه؛ إذ كمال الذات بأسمائها وصفاتها.

النوع الثاني: شرك من جعل معه إلهًا آخر، ولم يعطل أسماءَه وصفاتَه وربوبيتَه، كشرك النصارىٰ الذين جعلوه ثالثَ ثلاثةٍ، فجعلوا المسيحَ إلهًا وأمَّه إلهًا.

ومن هذا: شرك المجوس القائلين بإسناد حوادث الخير إلىٰ النور وحوادث الشر إلىٰ الظلمة.

ومن هذا: شرك القدرية القائلين بأن الحيوانَ هو الذي يخلق أفعالَ نفسِه، وأنها تحدث بدون مشيئةِ اللهِ وقدرتِه وإرادته؛ ولهذا كانوا أشباه المجوس.

ومن هذا: شرك كثيرٍ ممن يشرك بالكواكبِ العلويات، ويجعلها أربابًا مدبرة لأمرِ هذا العالم، كما هو مذهب مشركي الصابئة وغيرهم.

ومن هذا: شركُ عبَّادِ الشمس وعبادِ النار وغيرهم، ومن هؤلاء من يزعم أن معبوده هو الإله علىٰ الحقيقة، ومنهم من يزعم أنه أكبر الآلهة، ومنهم من يزعم

أنه إله من جملة الآلهة، وأنه إذا خصه بعبادته والتبتل إليه والانقطاع إليه أقبل عليه واعتنىٰ به، ومنهم من يزعم أن معبودَه الأدنىٰ يقربه إلىٰ المعبود الذي هو فوقه، والفوقاني يقربه إلىٰ من هو فوقه، حتىٰ تقرِّبَه تلك الآلهة إلىٰ الله سبحانه؛ فتارة تكثُر الوسائطُ، وتارةً تقل.

[النوع الثالث]: الشرك في العبادة، فهو أسهل من هذا الشرك، وأخفُّ أمرًا، فإنه يصدر ممن يعتقد أنه لا إله إلا الله، وأنه لا يضر وينفع ويعطي ويمنع إلا الله، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه؛ ولكن لا يخلص للهِ في معاملته وعبوديته، بل يعمل لحظِّ نفسه تارةً، ولطلب الدنيا تارةً، ولطلب الرفعةِ والمنزِلَةِ والجاه عند الخلق تارةَ. فلله من عملِه وسعيِه نصيبٌ، ولنفسه وحظه وهواه نصيبٌ، وللشيطان نصيب، وللخلق نصيب. وهذا حال أكثر الناس.

وهذا الشرك في العبادة يبطل ثواب العمل، وقد يعاقب عليه إذا كان العمل واجبًا، فإنه ينزله منزلة من لم يعمله، فيعاقب علىٰ ترك الأمر.

وهذا الشرك ينقسم إلىٰ مغفورٍ وغير مغفور، وأكبر وأصغر، والنوع الأول ينقسم إلىٰ كبير وأكبر، وليس شيء منه مغفورًا.

[النوع الرابع]: الشرك به سبحانه في الأفعال والأقوال والإرادات والنيات.

فالشرك في الأفعال كالسجود لغيره، والطوافِ بغير بيته، وحلقِ الرأس عبوديةً وخضوعًا لغيره، وتقبيلِ الأحجار غير الحجر الأسود الذي هو يمينه في الأرض، وتقبيلِ القبور واستلامها والسجود لها.

والشرك به في اللفظ، كالحلف بغيره، ومن ذلك قول القائل للمخلوق: ما

شاء الله وشئت.

وأما الشرك في الإرادات والنيات، فذلك البحر الذي لا ساحل له، وقلَّ من ينجو منه، فمن أراد بعمله غيرَ وجهِ الله، أو نوىٰ شيئًا غير التقرب إليه وطلب الجزاءَ منه، فقد أشرك في نيته وإرادته.

أقْسامُ التَّعطِيلِ

[التعطيل] ثلاثة أقسام:

[الأول]: تعطيل المصنوع عن صانعه وخالقه.

[الثاني]: تعطيل الصانع سبحانه عن كماله المقدس، بتعطيل أسمائه وأوصافه وأفعاله.

[الثالث]: تعطيل معاملته عما يجب علىٰ العبد من حقيقة التوحيد.

* * *

أنواعُ الخَطَراتِ

١- خَطَراتٌ يَستجْلِبُ بها منافِعَ دنياه.

٢- وخطَراتٌ يستدفِعُ بها مضارَّ دنياه.

٣- وخطَراتٌ يَستجِلب بها مصالِحَ آخرتِه.

٤- وخطَراتٌ يَستدفِعَ بها مضارَّ آخرتِه.

أنواعُ الفِكْرَةِ للهِ

أحدها: الفكرة في آياته المنزلة، وتعقلها وفَهم مراده منها؛ ولذلك أنزلها الله تعالىٰ، لا لمجرد تلاوتها، بل التلاوة وسيلةٌ، قال بعض السلف: أُنزِل القرآنُ ليعمل به، فاتخذوا تلاوتَه عملًا.

الثاني: الفكرة في آياته المشهودة، والاعتبار بها، والاستدلال بها علىٰ أسمائه وصفاته وحكمته وإحسانه وبِرِّه وجودِه. وقد حضَّ اللهُ -سبحانه- عبادَه علىٰ التفكر في آياته وتدبرها وتعقلها، وذمّ الغافل عن ذلك.

الثالث: الفكرة في آلائه وإحسانه وإنعامه علىٰ خلقه بأصناف النعم وسَعةِ رحمته ومغفرته وحلمه.

وهذه الأنواع الثلاثة تستخرج من القلب معرفةَ الله ومحبته وخوفه ورجاءه؛ ودوامُ الفكرة في ذلك مع الذكر يصبغُ القلبَ في المعرفة والمحبة صبغة.

الرابع: الفكرة في عيوب النفس وآفاتها وفي عيوب العمل، وهذه الفكرة عظيمة النفع، وهي بابٌ لكل خير، وتأثيرُها في كسرِ النفس الأمَّارة، ومتىٰ كُسِرت عاشت النفس المطمئنة، وانتعشت، وصار الحكمُ لها؛ فحيِيَ القلبُ ودارتْ كلمتُه في مملكته، وبثَّ أمراءَه وجنودَه في مصالحه.

الخامس: الفكرة في واجب الوقت ووظيفته، وجمع الهمِّ كله عليه. فالعارفُ ابنُ وقتِه، فإن أضاعه ضاعت عليه مصالِحُه كلها. فجميع المصالح إنما تنشأ من الوقت، وإن ضيعه لم يستدركه أبدًا.

أَقْسامُ النَّاسِ في انْتِفاعِهِمْ وانْتِفاعِ النَّاسِ بِعِلْمِهِم

[القسم الأول]: [أهل الصبر واليقين]، وهذا هو الذي ينتفع بعلمه، وينتفع به الناسُ.

[القسم الثاني]: لا ينتفع بعلمه، ولا ينتفع به غيرُه.

[القسم الثالث]: من ينتفع بعلمه في نفسه، ولا ينتفع به غيرُه.

فالأول: يمشي في نوره، ويمشي الناسُ في نوره. والثاني: قد طفِئَ نورُه؛ فهو يمشي في الظلمات ومن تبعه في ظلمته. والثالث: يمشي في نوره وحده.

أَنواعُ المَحَبَّةِ

أحدها: محبةُ الله. ولا تكفي وحدها في النجاة من عذابه والفوز بثوابه، فإن المشركين وعبَّادَ الصليب واليهودَ وغيرَهم يحبون الله.

الثاني: محبة ما يحبُّه الله. وهذه هي التي تدخله في الإسلام، وتخرجه من الكفر؛ وأحب الناس إلىٰ الله أقومهم بهذه المحبة وأشدهم فيها.

الثالث: الحبُّ للهِ وفيهِ. وهي من لوازم محبَّةِ ما يحب، ولا يستقيم محبَّةُ ما يحب إلا بالحب فيه وله.

الرابع: المحبة مع الله. وهي المحبة الشِّركِية، وكل من أحب شيئًا مع الله، لا لله ولا من أجله ولا فيه، فقد اتخذه نِدًّا من دون الله، وهذه محبة المشركين.

وبقي قسمٌ خامس: ليس مما نحن فيه، وهو المحبة الطبعِيَّةُ، وهي ميل الإنسان إلىٰ ما يلائم طبعَه؛ كمحبة العطشان للماء، والجائعِ للطعام، ومحبةِ

النوم والزوجة والولد. فتلك لا تُذَمُّ إلا إذا ألهَتْ عن ذكر الله وشغلت عن محبته.

أَقسامُ المَحْبُوبِ

المحبوب قسمان:

[القسم الأول]: محبوبٌ لنفسه.

[القسم الثاني]: محبوبٌ لغيره. والمحبوب لغيره لابُدّ أن ينتهي إلىٰ المحبوب لنفسه؛ دفعًا للتَّسَلسُلِ المحالِ. وكل ما سوىٰ المحبوب الحق فهو محبوبٌ لغيره، وليس شيءٌ يُحَبُّ لنفسه إلا الله وحده، وكل ما سواه مما يحب فإنما محبتُه تبعٌ لمحبة الرَّبِّ تعالىٰ، كمحبة ملائكته وأنبيائه وأوليائه، فإنها تبَعٌ لمحبته -سبحانه- وهي من لوازم محبته، فإن محبةَ المحبوب توجب محبة ما يحبه.

أقسام المحبوب لغيره

المحبوب لغيره قسمان:

أحدهما: ما يلتَذُّ المحبُّ بإدراكه وحصوله.

الثاني: ما يتألم به، ولكن يحتمله لإفضائه إلىٰ محبوبه، كشرب الدواء الكريه.

أقسامُ الوُصولِ إلى المكرُوهِ والمَحبوبِ

الأمورُ أربعةٌ:

[الأول]: مكروه يوصل إلىٰ مكروه.

[الثاني]: مكروه يوصل إلىٰ محبوب.

[الثالث]: محبوب يوصل إلىٰ محبوب.

[الرابع]: محبوب يوصل إلىٰ مكروه.

فالمحبوب الموصل إلىٰ المحبوب؛ قد اجتمع فيه داعي الفعلِ من وجهين، والمكروه الموصل إلىٰ مكروه؛ قد اجتمع فيه داعي التَّركِ من وجهين.

بقي القسمان الآخران، يتجاذبهما الداعيان، وهما معترَكُ الابتلاء والامتحان. فالنفس تُؤْثِر أقربهما جوارًا منهما، وهو العاجل. والعقل والإيمان يؤثران أنفعَهما وأبقاهما. والقلب بين الداعيين، وهو إلىٰ هذا مرة، وإلىٰ هذا مرة.

أنواعُ الحَرَكاتِ

الحركات ثلاثة أنواع: حركةٌ اختيارية إرادية، وحركة طبيعية، وحركة قسرية.

والحركة الطبيعية: أصلها السكون، وإنما يتحرك الجسم إذا خرج عن مستقَرِّه ومركزه الطبيعي، فهو يتحرك للعود إليه. وخروجه عن مركزه ومستقره إنما هو بتحريك القاسِرِ المحرِّكِ له. فله حركةٌ قسرِيَّة بمحركه وقاسرِه، وحركةٌ طبيعية بذاته يطلب بها العود إلىٰ مركزه. وكلا حركتيه تابعةٌ للقاسِرِ المحرك، فهو أصل الحركتين.

والحركة الاختيارية الإرادية -وهي أصل الحركتين الأخريين- وهي تابعة للإرادة والمحبة، فصارت الحركات الثلاث تابعةً للمحبة والإرادة.

أَقْسَامُ الدِّينِ

الدين دينان: دين شرعي أمري، ودين حسابي جزائي، وكلاهما لله وحده، فالدين كلُّه للهِ أمرًا أو جزاءً. والمحبة أصل كل واحد من الدِّينَين.

أَنواعُ لَذَّاتِ الدُّنْيَا

لذَّاتُ الدُّنيا ثلاثةُ أنواعٍ:

[النوع الأول]: فأعظمها وأكملها: ما أوصل إلىٰ لذَّةِ الآخرة. ويثاب الإنسانُ علىٰ هذه اللَّذَّةِ أتمَّ ثوابٍ؛ ولهذا كان المؤمنُ يثابُ علىٰ ما يَقصد به وجهَ اللهِ من أكله وشربِه، ولبسِه ونكاحِه، وشفاءِ غيظِه بقهر عدوِّ الله وعدوه؟ فكيف بلذَّةِ إيمانه ومعرفتِه بالله ومحبتِه له وشوقِه إلىٰ لقائه، وطَمَعِه في رؤيةِ وجهِه الكريمِ في جنات النعيم؟

النوع الثاني: لذَّةٌ تمنع لذةَ الآخرة، وتعقب آلامًا أعظم منها، كلذَّةِ الذين اتخذوا من دون الله أوثانًا مودة بينهم في الحياة الدنيا، يحبونهم كحب الله، ويستمتعون بعضهم ببعض، كما يقولون في الآخرة إذا لقوا ربهم: ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٨-١٢٩]، ولذة أصحاب الفواحِشِ والظلم والبغي في الأرض والعلو بغير الحق.

وهذه اللَّذَّات في الحقيقة إنما هي استدراجٌ من اللهِ لهم، ليذيقَهم بها أعظمَ الآلام، ويحرمهم بها أكملَ اللَّذَّاتِ؛ بمنزلة من قدم لغيره طعامًا لذيذًا مسمومًا يستدرجه به إلىٰ هلاكه.

النوع الثالث: لذة لا تعقب لذَّة في دارِ القرار ولا ألمًا، ولا تمنع أصلَ لذَّةِ دارِ

القرار، وإن منعت كمالَها. وهذه اللذة المباحة التي لا يستعان بها علىٰ لذة الآخرة. فهذه زمانُها يسير، ليس لتمتع النفس بها قدرٌ، ولابد أن تشغل عما هو خير وأنفع منها. وهذا القسم هو الذي عناه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «**كلُّ لهْوٍ يلهو به الرَّجلُ فهو باطِلٌ، إلَّا رميَه بقوسِه، وتأديبَه فرسَه، وملاعبَتَه امرأتَه؛ فإنَّهُنَّ منَ الحَقِّ**». فما أعان علىٰ اللَّذَّةِ المطلوبة لذاتِها فهو حقٌّ، وما لم يُعِن عليها فهو باطلٌ.

أَقسامُ عِشْقِ النِّساءِ

عشق النساء ثلاثة أقسام:

[القسم الأول]: عشقٌ هو قُربَةٌ وطاعة، وهو عشق الرجل امرأتَه وجاريتَه، وهذا العشق نافعٌ؛ فإنه أدعىٰ إلىٰ المقاصد التي شرع اللهُ لها النكاحَ، وأكفُّ للبصر والقلب عن التَّطَلُّع إلىٰ غير أهله؛ ولهذا يُحمَدُ هذا العاشِقُ عند الله وعند الناس.

[القسم الثاني]: عشق هو مقتٌ من اللهِ، وبُعدٌ من رحمته، وهو أضرُّ شيءٍ علىٰ العبد في دينه ودنياه؛ وهو عشقُ المُردانِ. فما ابتُلِي به إلَّا من سقط من عين الله، وطردَه عن بابِه، وأبعدَ قلبَه عنه. وهو من أعظم الحُجُبِ القاطعة عن الله، كما قال بعض السلف: إذا سقط العبدُ من عين الله ابتلاه بمحبة المُردانِ.

القسم الثالث: عشقٌ مباحٌ لا يُملَك، كعشق من وُصِفتْ له امرأةٌ جميلة، أو رآها فجأة من غير قصد، فأورثه ذلك عشقًا لها، ولم يُحدِثْ له ذلك العشقُ معصيةً؛ فهذا لا يُملَك ولا يُعاقَب عليه. والأنفعُ له مدافعتُه، والاشتغال بما هو أنفع له. والواجب علىٰ هذا أن يكتم، ويعف، ويصبر علىٰ بلواه؛ فيثيبه الله علىٰ ذلك، ويعوضه علىٰ صبره لله، وعفته، وتركه طاعة هواه، وإيثار مرضاة الله وما عنده.

أقْسامُ العُشَّاقِ

العشاق ثلاثة أقسام:

[القسم الأول]: من يعشق الجمال المطلق.

[القسم الثاني]: من يعشق الجمالَ المُقيَّدَ، سواء طمع بوصاله أو لم يطمع.

[القسم الثالث]: من لا يعشق إلا من يطمع في الوصول إليه.

وبين هذه الأنواع تفاوُتٌ في القوة والضعف. فعاشق الجمال المطلق قلبُه يهيم في كل وادٍ، وله في كل صورة جميلة مراد!

يومًا بِحُزْوَىٰ ويومًا بِالعُذَيْبِ ويَوْ ** مًا بالعَقِيقِ ويومًا بالخُلَيْصَاءِ

وتَارَةً تَنتَحِي نجدًا وآونةً ** شِعْبَ العَقِيقِ وطورًا قَصْرَ تَيْمَاءِ

فهذا عشقُه واسعٌ، ولكنه غيرُ ثابتٍ كثير التَّنقُّل.

يَهِيمُ بِهَذَا ثُمَّ يَعْشَقُ غَيْرَهُ ** وَيَسْلَاهُمْ مِنْ وَقْتِهِ حِينَ يُصْبِحُ

وعاشق الجمال المقيد أثبت علىٰ معشوقه، وأدومُ محبةً له. ومحبتُه أقوىٰ من محبة الأول؛ لاجتماعها في واحد، وتقسم الأولىٰ؛ ولكن يضعفها عدم الطمع في الوصال.

وعاشقُ الجمالِ الذي يُطمَع في وصالِه أعقلُ العشاق وأعرفُهم، وحبُّه أقوىٰ؛ لأن الطمع يمده ويقويه.

الفُروقُ الَّتي ذَكرَها ابنُ القَيِّمِ في كتابِه «الدَّاءِ والدَّوَاءِ»

الفرقُ بينَ الدُّخولِ والصِّليِّ

قال تعالىٰ: ﴿لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى﴾ [الليل: ١٥]، ولا يلزم من عدم صِليِّها عدم دخولها؛ فإن الصِّلِيَّ أخصُّ من الدخول، ونفي الأخص لا يستلزم نفي الأعم[١].

الفَرْقُ بين حُسْنِ الظَّنِّ والغُرُورِ

الفرق بين حسن الظن والغرور:

أن حسن الظن إن حَمَل علىٰ العمل، وحثَّ عليه، وساقَ إليه، فهو صحيح. وإن دعا إلىٰ البَطالَةِ والانهماكِ في المعاصي، فهو غرور.

وحسن الظن هو الرجاء، فمن كان رجاؤه حادِيًا له علىٰ الطاعة، زاجرًا له عن المعصية، فهو رجاء صحيح. ومن كانت بَطالَتُه رجاءً، ورجاؤه بطالَةً وتفريطًا، فهو المغرور.

ولو أن رجلًا له أرضٌ يؤمل أن يعود عليه من مُغَلِّها ما ينفعه فأهملها، ولم يَبْذُرْها، ولم يَحْرُثْها، وأحسن ظنه بأنه يأتي من مُغَلِّها ما يأتي من حرثَ وبَذَرَ،

(١) الداء والدواء (ص ٤٢).

وسَمَىٰ، وتعاهدَ الأرضَ، لعَدَّهُ الناسُ من أسفَهِ السُّفهاءِ.

وكذلك لو حسَّن ظنَّه وقوَّىٰ رجاءَه بأن يجيئه ولدٌ من غير جماعٍ، أو يصيرَ أعلمَ أهلِ زمانه من غير طلبٍ للعلم وحرصٍ تامٍّ عليه، وأمثال ذلك.

فكذلك من حسَّن ظنَّه وقوَّىٰ رجاءَه في الفوز بالدَّرجات العُلىٰ والنَّعيمِ المُقيم، من غيرِ طاعةٍ ولا تقرُّبٍ إلىٰ الله تعالىٰ بامتثال أوامره واجتناب نواهيه[1].

الفَرْقُ بينَ المُبْتَدِعِ والمُذْنِبِ

أنَّ **المذنِبَ** إنما ضررُه علىٰ نفسه، وأما **المُبتدِعُ** فضرره علىٰ النوع.

وفتنةُ **المُبتدِعِ** في أصل الدين، وفتنَةُ **المذنِبِ** في الشهوة.

والمُبتدِعُ قد قعد للناس علىٰ صراطِ اللهِ المستقيمِ يصدهم عنه، **والمذنب** ليس كذلك.

والمُبتدِعُ قادِحٌ في أوصاف الربِّ وكماله، **والمذنب** ليس كذلك.

والمُبتدِعُ مناقضٌ لما جاء به الرسول، **والعاصي** ليس كذلك.

والمبتدع يقطع علىٰ الناس طريقَ الآخرةِ، **والعاصي** بطيءُ السَّيْرِ بسبب ذنوبه[2].

---

(١) الداء والدواء (ص ٨٦).

(٢) الداء والدواء (ص ٣٣١).

الفَرْقُ بينَ الهَمِّ والحُزْنِ

المكروه الوارِدُ علىٰ القلب إن كان من أمرٍ مستقبَلٍ يتوقعه أحدثَ **الهَمَّ**، وإن كان من أمرٍ ماضٍ قد وقع أحدث **الحُزْنَ**.

الفَرْقُ بينَ العَجْزِ والكَسَلِ

إنْ تخلَّفَ العبدُ عن أسبابِ الخير والفلاحِ؛ إن كان لعدم قدرته فهو **العجز**، وإن كان لعدمِ إرادتِه فهو **الكسَلُ**.

الفَرْقُ بينَ الجُبْنِ والبُخْلِ

إنَّ عَدَمَ النفعِ منه إن كان ببدنه فهو **الجبنُ**، وإن كان بماله فهو **البُخْلُ**.

الفَرْقُ بينَ ضَلَعِ الدَّيْنِ وقَهْرِ الرِّجالِ

استعلاءُ الغيرِ عليه إن كان بحقٍّ، فهو **ضَلَعُ الدَّيْنِ**. وإن كان بباطلٍ فهو **قهرُ الرِّجالِ**.

الفَرْقُ بينَ الخلة والمحبة

الخُلَّةُ تتضمن كمالَ **المَحبَّةِ** ونهايتَها.

المَحبَّةُ عامَّةٌ، **والخُلَّةُ** خاصَّةٌ، **والخُلَّةُ** نهايةُ **المحبَّةِ**.

فَوَائِدُ لُغَوِيَّةٌ

معنى الكَرِيمِ

الكريمُ: هو السيد العظيم المطاع الذي لا ينبغي الاغترار به ولا إهمال حقِّه.

معنى التَّدْسِيَةِ

أصل التَّدْسِيَةِ: الإخفاءُ. ومنه قوله تعالىٰ: ﴿يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِ﴾ [النحل: ٥٩]. فالعاصي يدسُّ نفسَه في المعصِيةِ، ويُخفي مكانَها، ويتوارىٰ من الخلق من سوء ما يأتي به، قد انقمع عند نفسه، وانقمع عند الله، وانقمع عند الخلق.

معنى العَلَاقَةِ

العَلَاقَةُ: أول مراتبِ المحبة، وسميت «علاقة»؛ لتعلُّقِ القلب بالمحبوب، قال:

وَعُلِّقْتُ لَيْلَىٰ وَهْيَ ذَاتُ تَمَائِمٍ ** وَلَمْ يَبْدُ لِلْأَتْرَابِ مِنْ ثَدْيِهَا حَجْمُ

وقال آخر:

أَعَلَاقَةٌ أُمَّ الْوَلِيدِ بَعْدَ مَا ** أَفْنَانُ رَأْسِكَ كَالثَّغَامِ الْمُخْلِسِ

معنى الصَّبَابَةِ

الصَّبابَةُ: من مراتب المحبة، وسميت بذلك؛ لانصباب القلب إلىٰ المحبوب.

معنى الغَرَامِ

الغَرَامُ: من مراتب المحبة، وهو لزوم الحب للقلب لزومًا لا ينفك عنه. ومنه سُمِّي الغريمُ غريمًا؛ لملازمته صاحبَه. ومنه قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥].

معنى العِشْقِ

العِشْقِ: من مراتب المحبة، وهو إفراطُ المحبَّةِ؛ ولهذا لا يوصف به الرَّبُّ تعالىٰ، ولا يطلق في حقه.

معنى الشَّوْقِ

الشَّوقُ: من مراتب المحبة، وهو سفرُ القلبِ إلىٰ المحبوب أحثَّ السَّفرِ.

معنى التَّتَيُّمِ

التَّتَيُّمُ: هو آخر مراتب الحب، وهو تعبد المحبِّ لمحبوبه، يقال: تيمه الحبُّ إذا عبده. ومنه: تيمُ اللهِ، أي: عبد الله.

معنى الدين

الدين: هو الطاعة والعادة. وسمىٰ الله سبحانه يوم القيامة: «يوم الدين»؛ لأنه اليوم الذي يدين فيه الناس بأعمالهم، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر. وذلك

يتضمن جزاءهم وحسابهم، فلذلك فُسِّر بيوم الجزاء، ويوم الحساب.

معنى التأله

التَّأَلُّهُ: هو المحبة، والطاعة، والخضوع.

معنى الإله

الإله: هو الذي تألهُهُ القلوبُ بالمحبة والإجلال والتعظيم والذل والخضوع، وتعبده.

معنى العبادة

العبادة: هي كمال الحب مع كمال الخضوع والذل.

قِصَصٌ ذكَرَها ابنُ القَيِّمِ في كِتابِ «الدَّاءِ والدَّوَاءِ»

(١)

(فَضْلُ الاسْتِشْفَاءِ بِسُورَةِ الفَاتِحَةِ)

[**قال ابن القيم**]: مَكُثْتُ بمكة مدةً تعتريني أدواءٌ، ولا أجد طبيبًا ولا دواءً، فكنت أعالج نفسي بالفاتحة، فأرىٰ لها تأثيرًا عجيبًا، فكنتُ أصفُ ذلك لمن يشتكي ألمًا، وكان كثيرٌ منهم يبرأ سريعًا.

(٢)

(الالْتِجَاءُ بِاللهِ)

ذكر ابن أبي الدنيا في كتاب «المجابين في الدعاء» عن الحسن قال: كان رجلٌ من أصحاب النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من الأنصارِ يُكْنَىٰ أبا مُعَلَّقٍ، وكان تاجرًا، يتَّجرُ بمال له ولغيره، يضرب به في الآفاق، وكان ناسكًا ورعًا، فخرج مرةً، فلقيه لصٌّ مُقنَّعٌ في السلاح، فقال له: ضع ما معك، فإني قاتلك. قال: ما تريد إلىٰ دَمِي؟ شأنُك بالمال! قال: أما المال فلي، ولستُ أريد إلَّا دَمَكَ. قال: أما إذ أبيتَ؛ فذرني أصلي أربعَ ركعاتٍ. قال: صَلِّ ما بدا لك؛ فتوضأ، ثم صلىٰ أربع ركعات. فكان من دعائه في آخر سجدةً أن قال: يا ودود، يا ذا العرش المجيد، يا

فعَّالُ لما يريد، أسألك بعِزِّك الذي لا يُرامُ، ومُلكِكَ الذي لا يُضامُ، وبنورِك الذي ملأ أركانَ عرشِك: أن تكفِيَني شرَّ هذا اللِّصِّ. يا مغيثُ أغِثْنِي، يا مغيثُ أغِثْنِي! ثلاث مرات. فإذا هو بفارس قد أقبل، بيده حربَةٌ، قد وضعها بين أذُنَي فرسِه. فلما بَصَرَ به اللِّصُّ أقبل نحوه، فطعنه، فقتله. ثم أقبل إليه، فقال: قم، فقال: من أنت، بأبي أنت وأمي؟ فقد أغاثني الله بك اليوم. فقال: أنا مَلَكٌ من أهل السماء الرابعة، دعوتَ بدعائك الأولِ، فسمِعتُ لأبواب السماء قعقعةً، ثم دعوتَ بدعائك الثاني، فسمِعْتُ لأهل السماء ضجَّةً. ثم دعوت بدعائك الثالث، فقيل لي: دعاء مكروبٍ. فسألتُ اللهَ أن يولِيَني قتلَه.

(٣)

(خُطُورَةُ الرَّجاءِ مَعَ سُوءِ العَمَلِ)

[قال ابن القيم]: قال لي رجل من المنتسبين إلىٰ الفقه: أنا أفعل ما أفعل، ثم أقول: سبحان الله وبحمده مئةَ مرةٍ، وقد غفر ذلك أجمعه، كما صح عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**من قال في يوم: سبحان الله وبحمده مئةَ مرةٍ؛ حُطَّت عنه خطاياه ولو كانت مثلَ زَبَدِ البحرِ**».

وقال لي آخرُ من أهل مكة: نحن أحدنا إذا فعل ما فعل، اغتسل وطاف بالبيت أسبوعًا، وقد مُحِيَ عنه ذلك.

وقال لي آخرُ: قد صح عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ أَصَبْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْ لِي، فَغَفَرَ اللهُ ذَنْبَهُ، ثُمَّ مَكُثَ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا آخَرَ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ أَصَبْتُ ذَنْبًا، فَاغْفِرْ لِي، فَقَالَ اللهُ** عَزَّوَجَلَّ: **عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ**

رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، فَلْيَصْنَعْ مَا شَاءَ!».

قال: وأنا لا أشك أن لي ربًّا يغفر الذنب، ويأخذ به.

وهذا الضرب من الناس قد تعلق بنصوص الرجاء، واتكل عليها، وتعلق بها بكلتا يديه. وإذا عُوتِب علىٰ الخطايا والانهماك فيها سرد لك ما يحفظه من سَعَةِ رحمة الله ومغفرته ونصوص الرجاء.

(٤)

(سوءُ الخُاتِمَةِ)

قيل لبعضهم: قل: لا إله إلا الله، فقال: آه! آه! لا أستطيع أن أقولها!

وقيل لآخر: قل: لا إله إلا الله، فقال: شاه، رخ، غلبتُك. ثم قضىٰ.

وقيل لآخر: قل: لا إله إلا الله، فقال:

يـا رُبَّ قائلـةٍ يومًـا وقـد تعبَـتْ ** كيـفَ الطريـقُ إلـىٰ حمّـام مِنْجـابِ

ثم قضىٰ.

وقيل لآخر: قل: لا إله إلا الله، فجعل يهذي بالغناء ويقول: تاننا تنتنا. حتىٰ قضىٰ.

وقيل لآخر ذلك، فقال: وما ينفعني ما تقول، ولم أدع معصيةً إلا ركبتُها. ثم قضىٰ، ولم يقلها.

وقيل لآخر ذلك، فقال: وما يغني عني، وما أعرف أني صليت لله صلاة، ولىٰ يقلها.

وقيل لآخر ذلك، فقال: هو كافر بما يقول. وقضىٰ.

وقيل لآخر ذلك، فقال: كلما أردتُ أن أقولها فلساني يمسك.

وأخبرني من حضر بعضَ الشَّحاذين عند موته فجعل يقول: لله فلسٌ، لله فلس. حتىٰ قضىٰ.

وأخبرني بعضُ التجار عن قرابةٍ له أنه احتضر، وهو عنده، فجعلوا يلقنونه: لا إله إلا الله، وهو يقول: هذه القطعة رخيصة، هذه مشترًىٰ جيِّد، هذه كذا. حتىٰ قضىٰ.

(٥)

(سُوءُ الخَاتِمَةِ)

قال (عبدالحق الإشبيلي) رَحِمَهُ اللَّهُ: ويروىٰ أن بعضَ رجال الناصر نزل به الموتُ، فجعل ابنُه يقول: قل: لا إله إلا الله، فقال: الناصر مولاي! فأعاد عليه القول، فأعاد مثل ذلك. ثم أصابته غشيةٌ، فلما أفاق قال: الناصر مولاي. وكان هذا دأبُه، كلما قيل له: قل: لا إله إلا الله، قال: الناصر مولاي، ثم قال لابنه: يا فلان، الناصر إنما يعرفك بسيفك، والقتل، القتل ثم مات.

(٦)

(سُوءُ الخَاتِمَةِ)

قال عبدالحق: وقيل لآخر ممن أعرفه: قل: لا إله إلا الله، فجعل يقول: الدار الفلانية أصلحوا فيها كذا، والبستان الفلاني افعلوا فيه كذا.

(٧)

(سُوءُ الخَاتِمَةِ)

وقال: (عبدالحق): وفيما أذِنَ لي أبو طاهر السلفي أن أحدث به عنه: أن رجلًا نزل به الموتُ، فقيل له: قل: لا إله إلا الله، فجعل يقول بالفارسية: ده، يازده. تفسيره: عشرة بإحدىٰ عشر.

(٨)

(خُطُورَةُ العِشْقِ المُحَرّمِ)

قيل لآخر: قل: لا إله إلا الله، فجعل يقول: أين الطريقُ إلىٰ حمامِ مِنْجابِ؟

قال: (عبدالحق): وهذا الكلام له قصةٌ. وذلك أن رجلا كان واقفًا بإزاء داره، وكان بابُها يشبه بابَ هذا الحمام، فمرت به جاريةٌ لها منظرٌ، فقالت: أين الطريق إلىٰ حمام مِنْجابِ؟ فقال: هذا حمامُ مِنْجاب. فدخلتِ الدارَ، ودخل وراءها. فلما رأت نفسَها في داره، وعلمت أنه قد خدعها، أظهرت له البشرَ والفرح باجتماعها معه، وقالت له: يصلح أن يكون معنا ما يطيب به عيشُنا، وتقر به عيونُنا، فقال لها: الساعة آتيك بكل ما تريدين وتشتهين. وخرج، وتركها في الدار، ولم يغلقها. فأخذ ما يصلح، ورجع، فوجدها قد خرجتْ، وذهبت، ولم تخنه في شيء. فهام الرجلُ، وأكثر الذكرَ لها، وجعل يمشي في الطرق والأزقة.

ويقول:

يـا رُبَّ قائلـةٍ يومًـا وقـد تعبَـتْ ** كيـفَ الطريـقُ إلـىٰ حمّـام مِنْجـابِ

فبينا هو يومًا يقول ذلك، وإذا بجارية أجابته من طاقٍ:

قَرْنانُ هَلَّا جعلتَ إذْ ظَفِرْتَ بها ** حِرزًا علىٰ الدَّارِ أو قُفْلًا علىٰ البابِ

فازداد هيمانُه، واشتد هيجانُه، ولم يزل علىٰ ذلك حتىٰ كان هذا البيت آخر كلامه من الدنيا.

(٩)

(خُطُورَةُ التَّعَلُّقِ بغيرِ اللهِ، ومِنها عِشْقُ المُرْدَانِ)

قال (عبدالحق): ويروىٰ أن رجلًا علق شخصًا، فاشتد كلفُه به، وتمكن حبُّه من قلبه، حتىٰ وقع لِما به، ولزمَ الفراشَ بسببه. وتمنع ذلك الشخصُ عليه، واشتد نفارُه عنه، فلم تزل الوسائِطُ يمشون بينهما، حتىٰ وعده أن يعودَه، فأخبر بذلك البائس؛ ففرح واشتد سرورُه، وانجلىٰ غمُّه، وجعل ينتظره للميعاد الذي ضربه له، فبينا هو كذلك، إذ جاءه الساعي بينهما، فقال: إنه وصل معي إلىٰ بعض الطريق، ورجع فرغَّبْتُ إليه وكلمتُه، فقال: إنه ذكرني وبرح بي ولا أدخل مداخِلَ الرَّيبِ، ولا أُعرِّض نفسي لمواقع التُّهم. فعاودته، فأبىٰ، وانصرف. فلما سمع البائِسُ، أُسقِط في يده، وعاد إلىٰ أشد مما كان به، وبدت عليه علائِمُ الموت. فجعل يقول في تلك الحال:

أسْلَمُ، يا راحَةَ العليلِ ** وَيَا شِفَا الْمُدْنَفِ النَّحِيلِ

رِضَاكِ أَشْهَىٰ إِلَىٰ فُؤَادِي ** مِنْ رَحْمَةِ الْخَالِقِ الْجَلِيلِ

فقلت له: يا فلان، اتق الله! قال: قد كان. فقمت عنه، فما جاوزتُ بابَ داره، حتىٰ سمعتُ ضجةَ الموت فعياذًا بالله من سوء العاقبة، وشؤم الخاتمة.

(١٠)

(سُوءُ الخَاتِمَةِ)

قال (عبدالحق): ويروىٰ أنه كان بمصر رجلٌ يلزم مسجدًا للأذان والصلاة، وعليه بهاءُ الطاعة وأنوار العبادةِ، فرقي يومًا المنارة علىٰ عادته للأذان، وكان تحت المنارة دارٌ لنصراني، فاطلع فيها، فرأىٰ ابنةَ صاحب الدار، فافتتن بها، فترك الأذان ونزل إليها، ودخل الدار عليها، فقالت له: ما شأنك؟ وما تريد؟ قال: أريدك! قالت: لماذا؟ قال: قد سبيْتِ لُبِّي، وأخذتِ بمجامع قلبي. قالت: لا أجيبك إلىٰ ريبة أبدًا. قال: أتزوجُكِ. قالت: أنت مسلمٌ، وأنا نصرانية، وأبي لا يزوجني منك. قال لها: أتنصر! قالت: إن فعلتَ، أفعَلُ. فتنصر الرجلُ ليتزوجها، وأقام معهم في الدار فلما كان في أثناء ذلك اليوم رقي إلىٰ سطح كان في الدار، فسقط منه، فمات. فلم يظفر بها، وفاتَهُ دينُه.

(١١)

[**قال ابن القيم**]: أخبرني بعضُ القضاة أن إرادته وشهوتَه تضمَحِلُّ عند امتناع امرأتِه أو سُرِّيته وإبائها بحيث لا يعاودها.

(١٢)

ذكر الخرائطي عن أبي غَسَّانَ، قال: مر أبو بكر الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بجارية وهي تقول:

وهَويتُـهُ مِـن قَبْـلِ قطْـعِ تَمـائِمِي ** مُتمايِـسًا مِثـلَ القَـضِيبِ النَّـاعِمِ

فسألها: أحرة أنت أم مملوكة؟ قالت: بل مملوكة. فقال: من هواك؟ فتلكأت، فأقسم عليها فقالت:

وأنا الَّتِي لَعِبَ الهَوَىٰ بِفُؤادِها ** قُتِلْتُ بحُبِّ مُحَمَّدِ بنِ القَاسِمِ

فاشتراها من مولاها، وبعث بها إلىٰ محمد بن القاسم بن جعفر بن أبي طالب، وقال: هؤلاء فتن الرجال. وكم - والله - قد مات بهِنَّ كريمٌ، وعَطِبَ بهن سليمٌ!

(١٣)

جاءتْ عثمانَ بنَ عفان جاريَةٌ تستدعي علىٰ رجل من الأنصار، فقال لها عثمان: ما قصتُك؟ فقالت: كلِفْتُ يا أميرَ المؤمنين بابن أخيه، فما أنفكُّ أراعيه. فقال له عثمان: أما أن تهبها لابن أخيك، أو أعطي ثمنَها من مالي. فقال: أشهدك يا أمير المؤمنين أنها له.

(١٤)

قال عبد الله بن معمر القيسي: حججتُ سنةً، ثم دخلتُ مسجد المدينة لزيارة قبر رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فبينا أنا جالسٌ ذات ليلة بين القبر والمنبر إذ سمعت أنينًا، فأصغيت إليه، فإذا هو يقول:

أَشْجاكَ نَوحُ حمائم السِّدْرِ ** فأهَجْنَ منك بلابلَ الصَّدْرِ

أم عزّ نومَك ذكرُ غانيةٍ ** أهدَتْ إليك وساوسَ الفكْرِ

يا ليلةً طالت علىٰ دَنِفٍ ** يشكو السُّهادَ وقلّةَ الصبرِ

أسلمتِ مَن يهوَىٰ لحرِّ جوًى ** متوقِّدٍ كتوقُّدِ الجَمْرِ
فالبدرُ يشهد أنّني كلِفٌ ** مُغْرًى بحبِّ شبيهةِ البدرِ
ما كنتُ أحسبني أهيمُ بها ** حتّىٰ بُلِيتُ وكنتُ لا أدرِي

ثم انقطع الصوتُ، فلم أدرِ من أين جاء، وإذا به قد أعاد البكاء والأنين، ثم أنشد:

أشجاك من ريَا خيالٌ زائرُ ** والليلُ مسوَدُّ الذوائبِ عاكِرُ
واعتاد مهجتك الهوىٰ برَسِيسِه ** واهتاجَ مقلتك الخيالُ الزائرُ
ناديتُ ريَّا والظلامُ كأنّه ** يمٌّ تلاطَمَ فيه موجٌ زاخرُ
والبدرُ يسري في السماء كَأنّه ** ملِكٌ ترجَّلَ والنجومُ عساكِرُ
وترىٰ به الجَوْزاءَ ترقصُ في الدُّجَىٰ ** رقصَ الحَبيبِ عَلَاهُ سُكْرٌ ظاهرُ
يا ليلُ طُلْتَ علىٰ محِبٍّ ما له ** إلا الصباحَ مُساعِدٌ ومُؤازِرُ
فأجابني مُتْ حتفَ أنفِكَ واعْلَمَنْ ** أنّ الهوىٰ لَهُوَ الهَوانُ الحاضِرُ

قال: وكنتُ ذهبت عند ابتدائه بالأبيات، فلم ينته إلا وأنا عنده، فرأيت شابًّا مقتبلًا شبابُه، قد خرق الدمعُ في خدِّه خَرقَيْن، فسلمتُ عليه، فقال: اجلس، من أنت؟ فقلت: عبدُ الله بن معمر القيسي. قال: ألك حاجةٌ؟ قلت: نعم، كنتُ جالسًا في الروضة، فما راعني إلا صوتُك، فبنفسي أفديك! فما الذي تجد؟ فقال: أنا عُتبَةُ بن الحباب بن المنذر بن الجموح الأنصاري، غدوتُ يومًا إلىٰ مسجد الأحزاب، فصليتُ فيه، ثم اعتزلت غير بعيد، فإذا بنسوةٍ قد أقبلن يتهادين مثل القطا، وفي وسطهن جاريةٌ بديعةُ الجمالِ كاملة الملاحة، فوقفتْ عليَّ وقالت: يا عتبةُ ما

تقول في وصل من يطلب وصلك؟ ثم تركتْني وذهبتْ، فلم أسمع لها خبرًا، ولا قفوت لها أثرًا، وأنا حيران أنتقل من مكان إلىٰ مكان. ثم صرخ وأكب مغشِيًّا عليه، ثم أفاق كأنما صبغت وجنتاه بورس، ثم أنشأ يقول:

أراكم بقلبي من بلادٍ بعيدةٍ ** فيا هَلْ تَرَوني بالفؤاد علىٰ بُعدِ
فؤادي وطَرفي يأسفان عليكمُ ** وعندكمُ روحي وذكركمُ عندي
ولستُ ألذُّ العيشَ حتّىٰ أراكم ** ولو كنتُ في الفردوس في جنّةِ الخلدِ

فقلت: يا ابنَ أخي تب إلىٰ ربك، واستغفر من ذنبك، فبين يديك هولُ المطلع. فقال: ما أنا بسالٍ حتىٰ يؤوب القارظان! ولم أزل معه إلىٰ أن طلع الصبحُ، فقلتُ: قم بنا إلىٰ مسجد الأحزاب، فلعل الله أن يكشف كربتَك! قال: أرجو ذاك إن شاء الله ببركة طلعتك، فذهبنا حتىٰ أتينا مسجد الأحزاب، فسمعته يقول:

يا لَلرِّجالِ لِيوم الأربعاء أما ** ينفكّ يُحدِث لي بعد النُّهَىٰ طرَبا
ما إن يزال غزالٌ منه يُقلِقُني ** يأتي إلىٰ مسجدِ الأحزابِ مُنْتقِبا
يُخبّر الناسَ أنّ الأجرَ همّتُه ** وما أتىٰ طالبًا للأجر محتسِبا
لو كان يبغي ثوابًا ما أتىٰ صَلِفًا ** مُضَمَّخًا بفَتِيتِ المِسكِ مُختضِبا

ثم جلسنا حتىٰ صلينا الظهر، فإذا بالنسوة قد أقبلن، وليست الجارية فيهن، فوقفن عليه، وقلن له: يا عتبةُ ما ظنك بطالبة وصلك وكاسفة بالك؟ قال: وما بالها؟ قلن: أخذها أبوها، وارتحل بها إلىٰ أرض السماوة. فسألتهن عن الجارية، فقلن: هي ريا ابنة الغطريف السلمي. فرفع عتبةُ رأسَه إليهن، وقال:

خليلَيَّ ريّا قد أجدَّ بكورُها ** وسارتْ إلىٰ أرضِ السماوَةِ عِيرُها

خَليلَـيَّ إنِّـي قـد عَـشِيتُ مـن البكـا ** فهـل عنـد غيـري مقلـةٌ أسـتعيرُها

فقلتُ له: إني قد وردت بمال جزيل أريد به أهل الستر، ووالله لأبذلنه أمامك حتىٰ تبلغَ رضاك وفوق الرضا! فقم بنا إلىٰ مسجد الأنصار. فقمنا وسرنا حتىٰ أشرفنا علىٰ ملإٍ منهم، فسلمت، فأحسنوا الرد. فقلت: أيها الملأ ما تقولون في عتبةَ وأبيه؟ قالوا: من سادات العرب. فقلت: إنه قد رُمِي بداهية من الهوىٰ، وما أريد منكم إلا المساعدة إلىٰ السماوة. فقالوا: سمعًا وطاعة.

فركبنا، وركب القومُ معنا، حتىٰ أشرفنا علىٰ منازل بني سليم. فأُعلِم الغطريفُ بنا، فخرج مبادرًا، فاستقبلنا، وقال: حييتم بالإكرام. فقلنا: وأنت فحياك الله، إنا لك أضياف. فقال: نزلتم أكرم منزل. فنادىٰ: يا معشر العبيد أنزلوا القوم. ففُرِشتِ الأنطاع والنمارق، وذبحتِ الذبائح. فقلنا: لسنا بذائقي طعامِك حتىٰ تقضِيَ حاجتَنا. فقال: وما حاجتكم؟ قلنا: نخطب عقيلتَك الكريمة لعتبة بن الحباب بن المنذر. فقال: إن التي تخطبونها أمرها إلىٰ نفسها، وأنا أدخل أخبرها.

ثم دخل مغضبًا علىٰ ابنته، فقالت: يا أبت ما لي أرىٰ الغضب في وجهك؟ فقال: قد ورد الأنصار يخطبونك مني. قالت: سادةٌ كرام، استغفر لهم النبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فلمن الخطبة منهم؟ قال: لعتبة بن الحباب. قالت: والله لقد سمعت عن عتبةَ هذا أنه يفي بما وعد، ويدرك إذا قصد. فقال: أقسمتُ لا زوجتُك به أبدًا، ولقد نمىٰ إلي بعضُ حديثِك معه. فقالت: ما كان ذلك، ولكن إذ أقسمت فإن الأنصار لا يردون ردًّا قبيحا، فأحسن لهم الرد. فقال: بأي شيء؟ قالت: أغلظ لهم المهر، فإنهم يرجعون ولا يجيبون. فقال: ما أحسن ما قلت!

ثم خرج مبادرًا فقال: إن فتاة الحي قد أجابت، ولكني أريد لها مهرَ مثلِها، فمن القائم به؟ فقال عبد الله بن معمر: أنا، فقل ما شئتَ! فقال: ألف مثقال من الذهب، ومائة ثوب من الأبراد، وخمسة أكرشة عنبر. فقال عبدالله: لك ذلك، فهل أجبت؟ قال: نعم، قال عبد الله: فأنفذت نفرًا من الأنصار إلىٰ المدينة، فأتوا بجميع ما طلب. ثم صُنِعتِ الوليمةُ وأقمنا علىٰ ذلك أيامًا. ثم قال: خذوا فتاتكم، وانصرفوا مصاحبين.

ثم حملها في هودج، وجهزها بثلاثين راحلة من المتاع والتحف، فودعناه، وسرنا، حتىٰ إذا بقي بيننا وبين المدينة مرحلة واحدة خرجت علينا خيل تريد الغارة، أحسبها من سليم، فحمل عليها عتبة بن الحباب، فقتل منهم رجالًا، وجدل آخرين. ثم رجع وبه طعنةٌ تفور دمًا، فسقط إلىٰ الأرض. وأتتنا نجدةٌ، فطردت عنا الخيل. وقد قضىٰ عتبةُ نحبَه، فقلنا: واعتبتاه! فسمعتنا الجارية، فألقت نفسها عن البعير، وجعلت تصيح بحرقة وأنشدت:

تصبّرتُ لا أنّي صبرتُ وإنما ** أعلِّل نفسي أنّها بك لاحقَه
فلو أنصفَتْ روحي لكانت إلىٰ الرَّدىٰ ** أمامكَ من دون البريّة سابقَه
فما أحدٌ بعدي وبعدكَ منصِفٌ ** خليلًا ولا نفسٌ لنفسٍ موافقَه

ثم شهقت، وقضت نحبها. فاحتفرنا لهما قبرًا واحدًا، ودفناهما فيه ثم رجعتُ، فأقمت سبع سنين. ثم ذهبتُ إلىٰ الحجاز، ووردت المدينة، فقلت: والله لآتين قبرَ عتبةَ أزوره. فأتيت القبر، فإذا عليه شجرة عليها عصائِبُ حمرٌ وصفرٌ. فقلت لأرباب المنزل: ما يقال لهذه الشجرة؟ قالوا: شجرة العروسين!

(١٥)

ذكر الخرائطي أن عبد الله بن عمر اشترىٰ جاريةً رومية، فكان يحبها حبًّا شديدا، فوقعت ذات يوم عن بغلة له، فجعل يمسح التراب عن وجهها، ويفديها، وكانت تكثر أن تقول له: يا بطرون، أنت قالون. تعني: يا مولاي أنت جيد. ثم إنها هربت منه، فوجد عليها وجدًّا شديدًا، وقال:

قد كنتُ أحسِبُنِي قَالُونَ فانصَرَفَتْ ** فاليومَ أَعْلَمُ أَني غَيْرُ قالُونِ

(١٦)

أُتِي بغلام من العرب وُجِد في دار قوم بالليل، فقال له: ما قصتُك؟ قال: لستُ بسارق، ولكني أصدقك:

تعلّقتُ في دار الرِّياحيِّ خَودةً ** يذِلّ لها من حسن منظرها البدرُ
لها في بنات الروم حسن ومنظرٌ ** إذا افتخرتْ بالحسن جانبَها الفخرُ
فلما طرقتُ الدار من حَرِّ مُهْجةٍ ** أتيتُ وفيها من توقّدها الجمرُ
تبادَرَ أهلُ الدار لي ثم صيَّحوا ** هو اللصُّ محتومًا له القتلُ والأسرُ

فلما سمع عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شعرَه رق له، وقال للمهلب بن رياح: اسمح له بها، فقال: يا أمير المؤمنين سله من هو؟ فقال: النهاس بن عيينة.

فقال: خذها، فهي لك.

(١٧)

اشترىٰ معاويةُ جاريةً، فأعجب بها إعجابًا شديدا، فسمعها يومًا تنشد أبياتا منها:

وفارقتُـه كالغـصن يهتـزُّ في الثـرىٰ ** طريـرًا وسـيمًا بعـد مـا طـرَّ شـاربُه

فسألها، فأخبرتْه أنها تحب سيدَها، فردها إليه، وفي قلبه منها.

(١٨)

ذكر الزمخشري أن زُبيدَةَ قرأت في طريق مكة علىٰ حائط:

أمَـــا في عبـــاد الله أو في إمائـــه ** كريمٌ يُجلّي الهمَّ عن ذاهبِ العقلِ

لـــه مقلـــةٌ أمـــا المـــآقي قريحـــةٌ ** وأما الحشا فالنـارُ منه علىٰ رِجْلِ

فنذرت أن تحتال لقائلهما إن عرفته حتىٰ تجمعَ بينه وبين من يحبه، فبينا هي بالمزدلفة إذ سمعتْ من ينشد البيتين، فطلبته، فزعم أنه قالهما في ابنة عمٍّ له، نذر أهلها أن لا يزوجوها منه. فوجهت إلىٰ الحي، ومازالتْ تبذل لهم المال حتىٰ زوجوها منه؛ وإذا المرأة أعشق له منه لها. فكانت تعده من أعظم حسناتها، وتقول: ما أنا بشيء أسر مني من جمعي بين ذلك الفتىٰ والفتاة.

(١٩)

قال الخرائطي وكان لسليمان بن عبد الملك غلامٌ وجاريةٌ يتحابان، فكتب الغلام لها يوما:

ولقـــد رأيتـــكِ في المنـــام كأنّمـــا ** عـــاطيتنِي مـــن ريـــق فيـــكِ البـــاردِ

وكـــأنّ كفَّـــكِ في يـــدِي وكأنّنـــا ** بِتْنـــا جميعًـــا في فـــراشٍ واحـــدِ
فطفقـــــتُ يـــــومي متراقـــــدًا ** لأراكِ في نـــومي ولـــستُ براقـــدِ

فأجابته الجارية:

خيـــرًا رأيـــتَ وكـــل مـــا أبـــصرتَه ** ســـتناله منّـــي بـــرغم الحاســـدِ
إنّـــي لأرجـــو أن تكـــونَ معـــانِقِي ** فتبيـــــتَ فـــــوق ثـــــديٍ ناهـــــدِ
وأراك بـــين خَلاخِلـــي ودَمـــالِجي ** وأراك فـــوق ترائِبـــي ومَجاسِـــدي

فبلغ ذلك سليمان، فأنكحها الغلام، وأحسن حالهما علىٰ فرط غيرته.

أقوالُ السَّلَفِ الوارِدَةُ في كتابِ «الدَّاءِ والدَّواءِ»

❋ قال أبو ذر: يكفي من الدعاء مع البر ما يكفي الطعام من الملح.

❋ قال ابن مسعود: ما كرب نبيٌّ من الأنبياء إلا استغاث بالتسبيح.

❋ قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لستم تُنصرون بكثرة، وإنما تنصرون من السماء».

❋ وكان يقول: إني لا أحمل هم الإجابة، ولكن هم الدعاء؛ فإذا أُلهِمتُ الدعاء فإن الإجابة معه.

❋ قال معروفٌ: رجاؤك لرحمةِ من لا تُطِيعُه من الخِذلان والحُمق.

❋ وقال بعضُ العلماء: من قطع عضوًا منك في الدنيا بسرقة ثلاثة دراهم، لا تأمن أن تكونَ عقوبته في الآخرة علىٰ نحو هذا.

❋ قيل للحسن: نراك طويل البكاء! فقال: أخاف أن يطرحني في النار، ولا يبالي.

❋ سأل رجلٌ الحسن، فقال: يا أبا سعيد، كيف نصنع بمجالسة أقوام يخوفونا حتىٰ تكاد قلوبنا تطير؟ فقال: والله لأن تصحب أقوامًا يخوفونك حتىٰ تدرك أمنًا خير لك من أن تصحب قومًا يؤمنونك حتىٰ تلحقك المخاوف.

❋ قال أبو الوفاء بنُ عَقِيلٍ: احذره ولا تغتر، فإنه قطع اليد في ثلاثة دراهم، وجلد الحد في مثل رأس الإبرة من الخمر، وقد دخلتِ امرأة النار في هرة، واشتعلت الشملة نارًا علىٰ من غلها وقد قتل شهيدًا.

❋ قال بعض السلف: إذا رأيتَ اللهَ يتابع نعمه عليك، وأنت مقيم علىٰ معاصيه، فاحذره؛ فإنما هو استدراج يستدرجك به.

❋ قال بعض السلف: رُبَّ مستدرَجٍ بنعم الله عليه وهو لا يعلم، ورب مغرور بستر الله عليه وهو لا يعلم، ورب مفتونٍ بثناء الناس عليه وهو لا يعلم.

❋ الصِّدِّيقُ يقول: وددت أني شعرة في جنب عبد مؤمن.

❋ وذكر عنه أنه كان يمسك بلسانه ويقول: هذا أوردني الموارِدَ.

❋ وكان يبكي كثيرًا، ويقول: ابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا.

❋ وقال: والله لوددت أني كنت هذه الشجرة، تؤكل وتعضد.

❋ قال قتادة: بلغني أن أبا بكر قال: وددت أني خضرة تأكلني الدواب.

❋ قال [عمر بن الخطاب] لابنه وهو في الموت: ويحك! ضع خدي علىٰ الأرض عساه أ ن يرحمَنِي. ثم قال: ويل أمي إن لم يُغفر لي، ثلاثًا، ثم قضىٰ.

❋ قال [عثمان بن عفان]: لو أنني بين الجنة والنار، لا أدري إلىٰ أيهما يؤمر بي، لاخترت أن أكون رمادًا، قبل أن أعلم إلىٰ أيهما أصير.

❋ وهذا علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وبكاؤه وخوفه، وكان يشتدُّ خوفُه من اثنتين: طولِ الأمل، واتباعِ الهوىٰ. قال: فأما طول الأمل فينسي الآخرة، وأما

اتباع الهوىٰ فيصد عن الحق. ألا وإن الدنيا قد ولت مدبرة، والآخرة مقبلة، ولكل واحدة منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغدًا حساب ولا عمل.

❊ أبو الدرداء كان يقول: إن أشد ما أخاف علىٰ نفسي يوم القيامة أن يقال لي: يا أبا الدرداء قد علِمتَ، فكيف عمِلتَ فيما علِمتَ؟

❊ وكان يقول: لو تعلمون ما أنتم لاقون بعد الموت، لما أكلتم طعامًا علىٰ شهوة، ولا شربتم شرابًا علىٰ شهوة، ولا دخلتم بيتًا تستظلون فيه، ولخرجتم إلىٰ الصعيد، تضربون صدوركم، وتبكون علىٰ أنفسكم، ولوددت أني شجرة تعضد ثم تؤكل.

❊ وكان أبو ذر يقول: يا ليتني كنت شجرة تعضد، ووددت أني لم أخلق.

❊ قال أبو عبيدة بن الجراح: وددت أني كبش، فذبحني أهلي، وأكلوا لحمي، وحسوا مرقي.

❊ قال إبراهيم التَّيْمي: ما عرضتُ قولي علىٰ عملي إلا خشيتُ أن أكون مكذبًا.

❊ قال ابن أبي مُلَيْكَةَ: أدركتُ ثلاثين من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلهم يخاف النفاقَ علىٰ نفسه، ما منهم أحد يقول: إنه علىٰ إيمان جبريل وميكائيل مؤمن، ولا أمنه إلا منافق.

❊ يذكر عن الحسن: ما خافه إلا مؤمن، ولا أمنه إلا منافق.

❋ قال عليٌّ: يأتي علىٰ الناس زمانٌ لا يبقىٰ من الإسلام إلا اسمه، ولا من القرآن إلا رسمه، مساجدهم يومئذ عامرة، وهي خراب من الهدىٰ، علماؤهم شرُّ من تحت أديمِ السماء، منهم خرجت الفتنة، وفيهم تعود.

❋ عن عبدالله بن مسعود قال: إذا ظهر الزنىٰ والربا في قرية؛ أذِن الله عَزَّوَجَلَّ بهلاكها.

❋ في مراسيل الحسن: إذا أظهر الناسُ العلمَ، وضيعوا العملَ، وتحابوا بالألسن، وتباغضوا بالقلوب، وتقاطعوا بالأرحام = لعنهم الله عَزَّوَجَلَّ عند ذلك، فأصمَّهم، وأعمىٰ أبصارهم.

❋ قال كعبٌ: إنما تزلزل الأرض إذا عمل فيها بالمعاصي، فترعد فرقًا من الرب جل جلاله أن يطلع عليها.

❋ قال الحسن: إن الفتنة والله ما هي إلا عقوبة من الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ الناس.

❋ ذُكِر عن مالك بن دينار، قال: قرأت في الحكمة: يقول الله عَزَّوَجَلَّ: أنا اللهُ مالك الملوك، قلوب الملوك بيدي، فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة، ومن عصاني جعلتهم عليه نقمةً. فلا تشغلوا أنفسكم بسب الملوك، ولكن توبوا إلي أعطفهم عليكم.

❋ من مراسيل الحسن: إذا أراد اللهُ بقوم خيرًا، جعل أمرَهم إلىٰ حلمائهم، وفيئَهم عند سمحائهم. وإذا أراد بقوم شرًّا جعل أمرَهم إلىٰ سفائهم، وفيئَهم عند بخلائهم.

❋ عن الفُضيل بن عياض، قال: أوحىٰ الله إلىٰ بعض الأنبياء: إذا عصاني من يعرفني سلطت عليه من لا يعرفني.

❋ قال العمرِي الزاهد: إن من غفلتك عن نفسك وإعراضك عن الله أن ترىٰ ما يسخط الله فتتجاوزه، ولا تأمر فيه، ولا تنهىٰ عنه، خوفًا ممن لا يملك ضرًّا ولا نفعًا.

❋ وقال: من ترك الأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر مخافة من المخلوقين نزعت منه الطاعة، ولو أمر ولده أو بعض مواليه لاستخف بحقه.

❋ عن عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: توشك القرىٰ أن تخرب، وهي عامرة. قيل: وكيف تخرب وهي عامرة؟ قال: إذا علا فجارُها أبرارَها وساد القبيلةَ منافِقُها.

❋ عن أنس بن مالك قال: إنكم لتعملون أعمالًا هي أدق في أعينكم من الشعر، إن كنا لنعدها علىٰ عهد رسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من الموبقات.

❋ عن ابن عباس أنه قال: يا صاحبَ الذنب! لا تأمن سوءَ عاقبته ، ولَمَا يتبعُ الذنبَ أعظم من الذنب إذا عملته: قلةُ حيائك ممن علىٰ اليمين وعلىٰ الشمال، وأنت علىٰ الذنب، أعظم من الذنب. وضحكك، وأنت لا تدري ما الله صانعٌ بك، أعظم من الذنب. وفرحك بالذنب إذا ظفرت به أعظم من الذنب. وحزنك علىٰ الذنب إذا فاتك أعظم من الذنب. وخوفك من الريح إذا حركت ستر بابك، وأنت علىٰ الذنب، ولا يضطرب فؤادك من نظر الله إليك، أعظم من الذنب. ويحك! هل تدري ما كان ذنب أيوب، فابتلاه الله بالبلاء في جسده وذهاب ماله؟ استغاث به مسكين علىٰ ظالم يدرؤه عنه، فلم يغثه، ولم ينه الظالمَ عن ظلمه، فابتلاه الله.

❋ عن بلال بن سعد: لا تنظر إلىٰ صغر الخطيئة، ولكن انظر من عصيتَ؟

❋ قال الفضيل بن عياض: بقدر ما يصغر الذنب عندك، يعظم عند الله. وبقدر ما يعظم عندك، يصغر عند الله.

❋ قال حذيفة: إذا أذنب العبدُ نُكِتَ في قلبه نكتةٌ سوداء حتىٰ يصيرَ قلبُه كالشاة الربداء.

❋ كتبت عائشةُ إلىٰ معاويةَ: أما بعد، فإن العبد إذا عمل بمعصية الله عاد حامده من الناس ذامًّا.

❋ عن أبي الدرداء قال: ليحذر امرؤ أن تلعنَه قلوب المؤمنين، من حيث لا يشعر. ثم قال: أتدري مم هذا؟ قلت: لا. قال: إن العبد يخلو بمعاصي الله ، فيلقي الله بغضَه في قلوب المؤمنين، من حيث لا يشعر.

❋ عن محمد بن سيرين: أنه لما ركبه الدَّيْنُ اغتم لذلك، فقال: إني لأعرِف هذا الغم بذنب أصبته منذ أربعين سنة.

❋ عن أبي الدرداء: اعبدوا الله كأنكم ترونه، وعدوا أنفسكم في الموتىٰ، واعلموا أن قليلًا يغنيكم خيرٌ من كثير يلهيكم. واعلموا أن البر لا يبلىٰ، وأن الإثم لا ينسىٰ.

❋ قال سليمان التيمي: إن الرجل ليصيب الذنب في السر، فيصبح وعليه مذلَّتُه.

❋ قال يحيىٰ بن معاذ الرازي: عجبتُ من ذي عقل يقول في دعائه: اللهم لا تشمت بي الأعداء، ثم هو يشمت بنفسه كل عدو له! قيل: وكيف ذلك؟ قال:

يعصي اللهَ فيَشمَتُ به في القيامة كلُّ عدوٍّ.

❋ قال عبد الله بن عباس: إن للحسنة ضياءً في الوجه، ونورًا في القلب، وسعة في الرزق، وقوة في البدن، ومحبة في قلوب الخلق. وإن للسيئة سوادًا في الوجه، وظلمة في القلب، ووهنا في البدن، ونقصًا في الرزق، وبغضة في قلوب الخلق.

❋ قال الحسن البصري: هانوا عليه فعصوه، ولو عزوا عليه لعصمهم.

❋ عن ابن مسعود قال: إن المؤمن يرىٰ ذنوبه كأنه في أصل جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرىٰ ذنوبه كذباب وقع علىٰ أنفه، فقال به هكذا، فطار.

❋ قال أبو هريرة: إن الحبارىٰ لتموت في وكرها من ظلم الظالم.

❋ وقال مجاهد: إن البهائم تلعن عصاة بني آدم إذا اشتدت السّنَة، وأمسك المطر؛ وتقول: هذا بشؤم معصية ابن آدم.

❋ قال عكرمة: دواب الأرض وهوامها حتىٰ الخنافس والعقارب يقولون: منعنا القطر بذنوب بني آدم.

❋ قال الحسن البصري: إنهم، وإن طقطقت بهم البغال، وهملجت بهم البراذين، إن ذل المعصية لا يفارق قلوبهم. أبىٰ الله إلا أن يذل من عصاه.

❋ قال بعض السلف: ما عصىٰ اللهَ أحدٌ حتىٰ يغيبَ عقلُه.

❋ قال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما نزل بلاءٌ إلا بذنب، ولا رُفِع بلاءٌ إلا بتوبة.

❋ يقول أحدهم في حال نزعه: واطرباه.

❋ ويقول الآخر: إن كان أهل الجنة في مثل هذه الحال ،إنهم لفي عيش طيب.

❋ ويقول الآخر: مساكين أهل الدنيا، خرجوا منها وما ذاقوا لذيذ العيش فيها، وما ذاقوا أطيب ما فيها.

❋ ويقول الآخر: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف.

❋ ويقول الآخر: إن في الدنيا جنة، من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة.

❋ قال بعض السلف: رأيت العبد ملقىٰ بين الله سبحانه وبين الشيطان، فإن أعرض الله عنه تولاه الشيطان، وإن تولاه اللهُ لم يقدر عليه الشيطان.

❋ قال بعض السلف: إني لأعصي اللهَ، فأعرف ذلك في خلق امرأتي ودابتي.

❋ كان بعض السلف يقول في خطبته: ألا رُبَّ مهينٍ لنفسه وهو يزعم أنه لها مكرم، ومُذِلٍّ لنفسه وهو يزعم أنه لها معِزٌّ، ومُصَغِّرٍ لنفسه وهو يزعم أنه لها مُكبِّرٌ، ومُضيعٍ لنفسه وهو يزعم أنه مُراعٍ لحقها. وكفىٰ بالمرء جهلًا أن يكون مع عدوه علىٰ نفسه، يبلغ منها بفعله ما لا يبلغه عدوه.

❋ قال بعض السلف: إذا ركِبَ الذَّكَرُ الذَّكَرَ عجَّتِ الأرضُ إلىٰ الله، وهربتِ الملائكة إلىٰ ربها، وشكت إليه عظيم ما رأت.

❋ قال بعض السلف: إذا أصبح العبدُ ابتدره الملك والشيطان، فإن ذكر الله وكبره وحمده وهلله؛ طرد الملكُ الشيطان وتولاه، وإن افتتح بغير ذلك، ذهب

الملك عنه، وتولاه الشيطان.

❋ قال الإمام أحمد: لا أعلم بعد القتل ذنبًا أعظم من الزنىٰ.

❋ قال حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: القلوب أربعة: فقلب أجرد فيه سراج يزهر، فذلك قلب المؤمن. وقلب أغلف، فذلك قلب الكافر. وقلب منكوس، فذلك قلب المنافق. وقلب تمده مادتان: مادة إيمان ومادة نفاق، وهو لما غلب عليه منهما.

❋ قال بعض السلف: إن هذه القلوب جوالة، فمنها ما يجول حول العرش، ومنها ما يجول حول الحش.

❋ قال بعض السلف: البدعة أحب إلىٰ إبليس من المعصية؛ لأن المعصية يُتاب منها، والبدعة لا يُتاب منها.

❋ قال الشافعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: صحبتُ الصوفِيَّةَ، فلم أستفد منهم سوىٰ حرفين: أحدهما قولهم: الوقت سيف، فإن قطعته، وإلا قطعك. ونفسك إن شغلتها بالحق، وإلا شغلتك بالباطل.

❋ قال يحيىٰ بن معاذ: القلوب كالقدور تغلي بما فيها، وألسنتها مغارفها، فانظر الرجل حين يتكلم، فإن لسانه يغترف لك مما في قلبه: حُلو وحامِض، وعذب وأجاج، وغير ذلك. ويبين لك طعم قلبه اغتراف لسانه.

❋ كان علقمة يقول: كم من كلام قد منعنيه حديث بلال بن الحارث.

❋ قال عبد الله بن مسعود: ما ظهر الربا والزنىٰ في قرية إلا أذن الله بإهلاكها.

❋ لقد بكىٰ سفيان الثوري ليلة إلىٰ الصباح، فلما أصبح قيل له: كل هذا خوفًا من الذنوب؟! فأخذ تبنةً من الأرض، وقال: الذنوب أهون من هذا، وإنما أبكي من خوف الخاتمة.

❋ كان شجاعٌ الكِرمانِيُّ يقول: من عمر ظاهره باتباع السنة، وباطنه بدوام المراقبة؛ وغض بصره عن المحارم، وكف نفسه عن الشهوات، واغتذىٰ بالحلال = لم تخطئ فراستُه.

❋ قال الحسن: إنهم وإن طقطقت بهم البغال، وهملجت بهم البراذين، إنَّ ذلَّ المعصية في رقابهم. أبىٰ الله إلا أن يَذِلَّ من عصاه.

❋ كان بعض الشيوخ من العارفين يقول: لأن أُبتلىٰ بالفاحشة مع تلك الصورة أحب إلي من أن أبتلىٰ فيها بعشقٍ يتعبد لها قلبي ويشغله عن الله.

المَسائِلُ الفِقْهِيَّةُ
في كتابِ «الدَّاءِ والدَّواءِ»

مسألة: أيهما أغلظ عقوبة اللواط أم الزنى؟

قد اختلف الناس: هل [اللواط[أغلظ عقوبةً من الزنىٰ، أو الزنىٰ أغلظ عقوبة منه، أو عقوبتهما سواء؟ علىٰ ثلاثة أقوال:

[القول الأول]: أن عقوبتَه أغلظ من عقوبة الزنا، وعقوبتُه القتلُ علىٰ كل حالٍ محصنًا كان أو غير محصن.

وإليه ذهب: أبوبكر الصِّدِّيقُ، وعلي بن أبي طالب، وخالد بن الوليد، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عباس، وجابر بن زيد، وعبيد الله بن عبد الله بن معمر، والزهري، وربيعة بن أبي عبد الرحمن، ومالك، وإسحاق بن راهويه، والإمام أحمد -في أصح الروايتين عنه- والشافعي في أحد قوليه.

[القول الثاني]: أن عقوبته وعقوبة الزاني سواء.

وإليه ذهب: عطاء بن أبي رباح، والحسن البصري، وسعيد بن المسيب، وإبراهيم النخعي، وقتادة، والأوزاعي، والشافعي -في ظاهر مذهبه- والإمام أحمد -في الرواية الثانية عنه- وأبو يوسف، ومحمد.

[القول الثالث]: أن عقوبته دون عقوبة الزاني، وهي التعزير.

وإليه ذهب: الحَكَمُ، وأبو حنيفة.

أدلة القول الأول:

١- ليس في المعاصي مفسدة أعظم من هذه المفسدة، وهي تلي مفسدةَ الكفر، وربما كانت أعظم من مفسدة القتل.

٢- لم يبتلِ اللهُ تعالىٰ بهذه الكبيرة قبل قوم لوط أحدًا من العالمين، وعاقبهم عقوبةً لم يعاقب بها أمةً غيرَهم، وجمع عليهم من أنواع العقوبات من الإهلاك وقلب ديارهم عليهم، والخسف بهم، ورجمهم بالحجارة من السماء؛ فنكَّل بهم نكالًا لم ينكله بأمة سواهم، وذلك لعظم مفسدة هذه الجريمة التي تكاد الأرض تميد من جوانبها إذا عُمِلت عليها، وتهرب الملائكةُ إلىٰ أقطار السموات والأرض إذا شاهدوها خشية نزول العذاب علىٰ أهلها، فيصيبهم معهم؛ وتعج الأرضُ إلىٰ ربها تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وتكاد الجبال تزول عن أماكنها.

٣- [أن] قتل المفعولِ به خيرٌ له من وطئه، فإنه إذا وطِئَه الرجلُ قتله قتلًا لا ترجىٰ الحياة معه؛ بخلاف قتله فإنه مظلوم شهيد، وربما ينتفع به في آخرته.

٤- أن الله سبحانه جعل حد القاتل إلىٰ خيرة الولي، إن شاء قتل، وإن شاء عفا؛ وحتم قتل اللوطي حدًّا، كما أجمع عليه أصحاب رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ودلت عليه سنة رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصحيحة الصريحة التي لا معارض لها، بل عليها عمل أصحابه وخلفائه الراشدين.

٥- قد ثبت عن خالد بن الوليد أنه وجد في بعض ضواحي العرب رجلًا يُنكح كما تُنكح المرأةُ، فكتب إلىٰ أبي بكر الصِّدِّيق؛ فاستشار أبو بكرٍ الصحابةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، فكان علي بن أبي طالب أشدهم قولًا فيه، فقال: ما فعل هذا إلا أمة من الأمم واحدة، وقد علمتم ما فعل الله بها. أرىٰ أن يحرق بالنار، فكتب أبو بكر إلىٰ خالد فحرقه.

وقال عبد الله بن عباس: يُنظر أعلىٰ بناء في القرية، فيرمىٰ اللُّوطِيُّ منه منكبًا، ثم يتبع بالحجارة ، وأخذ عبد الله بن عباس هذا الحدَّ من عقوبةِ الله للوطية قوم لوط.

٦- [حديث] النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**منْ وجَدْتُموه يعمَلُ عمَلَ قومِ لُوطٍ، فاقتلوا الفاعِلَ والمَفعولَ به**». رواه أهل السنن.

٧- [قول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ]: « **لَعَنَ اللهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ! لَعَنَ اللهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ! لَعَنَ اللهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ!**».

[وجه الدلالة]: أنه لم تجئْ عنه لعنة الزاني في حديث واحد، وقد لعن جماعة من أهل الكبائر فلم يتجاوز بهم في اللعنة مرة واحدة، وكرر لعن اللوطيةِ، فأكده ثلاث مرات.

٨- أطبق أصحاب رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ علىٰ قتله، لم يختلف فيه منهم رجلان، وإنما اختلفت أقوالُهم في صفة قتله، فظن بعضُ الناس أن ذلك اختلافٌ منهم في قتله، فحكاها مسألةَ نزاعٍ بين الصحابة وهي بينهم مسألة إجماع، لا مسألة نزاع.

٩- من تأمل قوله سبحانه: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٢]، وقوله في اللواط: ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٠]، تبين له تفاوت ما بينهما. فإنه سبحانه نكر الفاحشة في الزنىٰ، أي هو فاحشة من الفواحش؛ وعرفها في اللواط، وذلك يفيد أنه جامع لمعاني اسم الفاحشة، كما تقول: زيد الرجل، ونعم الرجل زيد. أي: أتأتون الخَصلةَ التي استقر فحشها عند كل أحد؟ فهي لظهور فحشها وكماله غنية عن ذكرها، بحيث لا ينصرف الاسم إلىٰ غيرها.

أدلة القول الثالث:

١- لأنه معصية من المعاصي لم يقدر الله ولا رسوله فيه حدًّا مقدرًا، فكان فيه التعزير، كأكل الميتة والدم ولحم الخنزير.

٢- ولأنه وطءٌ في محل لا يشتهيه الطباع، بل ركبها اللهُ تعالىٰ علىٰ النفرة منه حتىٰ الحيوان البهيم، فلم يكن فيه حدٌّ، كوطء الحمار وغيره.

٣- ولأنه لا يسمىٰ زانيًا لغة ولا شرعا ولا عرفًا، فلا يدخل في النصوص الدالة علىٰ حد الزانيين.

٤- لأنا رأينا قواعد الشريعة أن المعصية إذا كان الوازِعُ عنها طبعيًّا اكتُفِي بذلك الوازع من الحدِّ، وإذا كان في الطباع تقاضيها، جُعل فيها الحدُّ بحسب اقتضاء الطباع لها؛ ولهذا جعل الحد في الزنىٰ والسرقة وشرب المسكر دون أكل الميتة والدم ولحم الخنزير.

٥- وطرد هذا: أنه لا حد في وطء البهيمة ولا الميتة، وقد جبل الله سبحانه

الطباع علىٰ النفرة من وطء الرجل مثله أشد نفرة، كما جبلها علىٰ النفرة من استدعاء الرجل من يطؤه، بخلاف الزنىٰ، فإن الداعي فيه من الجانبين.

٦- ولأن أحد النوعين إذا استمتع بشكله لم يجب عليه الحد، كما لو تساحقت المرأتان واستمتعت كل واحدة منهما بالأخرىٰ.

الرد علىٰ أدلة القول الثالث:

أما قولهم: إنها معصية لم يجعل اللهُ فيها حدًّا معينًا، فجوابه من وجوه:

أحدها: أن المبلغ عن الله جعل حد صاحبها القتل حتفًا، وما شرعه رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فإنما شرعه عن الله، فإن أردتم أن حدها غيرُ معلوم بالشرع فهو باطل، وإن أردتم أنه غيرُ ثابت بنص الكتاب لم يلزم من ذلك انتفاء حكمه لثبوته بالسنة.

الثاني: أن هذا ينتقض عليكم بالرجم، فإنه إنما ثبت بالسنة.

فإن قلتم: بل ثبت بقرآنٍ نُسِخ لفظُه وبقي حكمُه، قلنا: فينتقض عليكم بحد شارب الخمر.

الثالث: أن نفي دليلٍ معين لا يستلزم نفيَ مطلقِ الدليل ولا نفي المدلول، فكيف وقد قدمنا أن الدليل الذي نفيتُموه غير منتَفٍ؟

وأما قولكم: إنه وطءٌ في محل لا تشتهيه الطباع، بل ركب الله الطباع علىٰ النفرة منه، فهو كوطء الميتة والبهيمة؛ فجوابه من وجوه:

أحدها: أنه قياس فاسد الاعتبار، مردود بسنة رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وإجماع الصحابة، كما تقدم بيانه.

الثاني: أن قياس وطءِ الأمرد الجميل الذي فتنته تربي علىٰ كل فتنة، علىٰ وطء أتانٍ أو امرأة ميتة، من أفسد القياس. وهل تغَزَّل أحدٌ قط بأتان أو بقرة أو ميتة، أو سبىٰ ذلك عقلَ عاشقٍ، أو أسر قلبَه، أو استولىٰ علىٰ فكره ونفسه؟ فليس في القياس أفسد من هذا.

الثالث: أن هذا منتقَضٌ بوطء الأم والبنت والأخت، فإن النفرة الطبيعية عنه حاصلة، مع أن الحد فيه من أغلظ الحدود في أحد القولين، وهو القتل بكل حال محصنًا كان أو غير محصن. وهذا إحدىٰ الروايتين عن الإمام أحمد، وهو قول إسحاق بن راهويه وجماعة من أهل الحديث.

وأما قياسكم وطْءَ الرجل لمثله علىٰ تَدالُكِ المرأتين، فمن أفسد القياس، إذ لا إيلاج هناك، وإنما نظيره مباشرة الرجل الرجل من غير إيلاجٍ.

مسألة: [ما صِفَةُ الحدِّ لمن زَنى بِذاتِ مَحْرَمٍ؟]

اتفق المسلمون علىٰ أن من زنىٰ بذات محرم فعليه الحدُّ، وإنما اختلفوا في صفة الحد: هل هو القتلُ بكل حالٍ، أو حده حد الزاني؟ علىٰ قولين:

[القول الأول]: أن حده حد الزاني. [وهو] مذهب الشافعي، ومالك، وأحمد في إحدىٰ روايتيه.

[القول الثاني]: أن حدّه القتل بكل حال [وهو] مذهب أحمد، وإسحاق، وجماعةٍ من أهل الحديث.

مسألة: [حكْمُ مَنْ وَطِءَ البَهِيمَة]

للفقهاء فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه يؤدب، ولا حد عليه، وهذا قول مالكٍ، وأبي حنيفة، والشافعِيِّ -في أحد قوليه- وقول إسحاق.

القول الثاني: أن حكمه حكم الزاني، يجلد إن كان بكرًا، ويرجم إن كان محصنًا، وهو قول الحسن.

القول الثالث: أن حكمَه حكمُ اللُّوطِيِّ. نص عليه أحمد، فيخرج علىٰ الروايتين في حده: هل هو القتل حتمًا، أو هو كالزاني؟

أدلة من قال حده القتل:

[الأول]: لِما رواه أبو داود من حديث ابن عباسٍ، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من أتىٰ بهِيمَةً فاقْتُلُوه واقتُلُوها مُعه**».

[الثاني]: ولأنه وطءٌ لا يباح بحال، فكان فيه القتل كحد اللُّوطِيِّ.

أدلة من قال: لا حد عليه:

لم يصح فيه الحديثُ؛ ولو صح لقلنا به ولم يحل لنا مخالفته. قال إسماعيل بن سعيد الشَّالَنْجِي: سألت أحمد عن الذي يأتي البهيمة؟ فوقف عندها، ولم يُثبِتْ حديثَ عمرو بن أبي عمرو في ذلك. وقال الطحاوي: الحديث ضعيفٌ. وأيضًا فراويه ابن عباس، وقد أفتىٰ بأنه لا حد عليه. قال أبو داود: وهذا يضعف الحديث.

حكم الاستمتاعِ منَ المُسبِيَّةِ قبْلَ الاستِبْراءِ

[يرىٰ] الإمام أحمد جوازَ الاستمتاع من المسبية قبل الاستبراء بغير الوطء، بخلاف الأمةِ المشتراة. والفرق بينهما أنه لا يتوهم انفساخ الملك في المسبية، بخلاف المشتراة، فقد ينفسخ فيه الملك، فيكون مستمتِعًا بأمة غيره.

[واحتج بما]: ذكر الإمامُ أحمد أن عبدالله بن عمر وقع في سهمه يوم جَلُولَاءَ جاريةٌ كأنَّ عنقَها إبريق فضة. قال عبد الله: فما صبرت أن قبلتها، والناس ينظرون.

هل تمنع توبة المسلم منه بعد وقوعه؟

فيه قولان للسلف والخلف، وهما روايتان عن أحمد.

[القول الأول]: لا تمنع التوبة من نفوذه.

[الدليل الأول]: أنه حق لآدَمِيٍّ لم يستوفه في دار الدنيا، وخرج منها بظلامته، فلابد أن يستوفىٰ له في دار العدل

[الدليل الثاني]: وما استوفاه الوارِثُ فإنما استوفىٰ محض حقِّه الذي خيره الله بين استيفائه والعفو عنه، وما ينفع المقتول من استيفاء وارثه، وأي استدراك لظلامته حصل له باستيفاء وارثه؟

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: وهذا أصح القولين في المسألة: أن حق المقتول لا يسقط باستيفاء الوارث. وهما وجهان لأصحاب أحمد، والشافعي وغيرهم.

[القول الثالث]: أنه يسقط بالتوبة واستيفاء الوارث، فإن التوبة تهدم ما قبلها، والذنب الذي قد جناه قد أقيم عليه حده.

أدلتهم:

الدليل الأول: إذا كانت التوبة تمحو أثرَ الكفر والسحر وما هو أعظم إثمًا من القتل، فكيف تقصر عن محو أثر القتل؟ وقد قبل اللهُ توبةَ الكفار الذين قتلوا أولياءه، وجعلهم من خيار عباده، ودعا الذين حرقوا أولياءه وفتنوهم عن دينهم إلىٰ التوبة، وقال: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [الزمر: ٥٣]. فهذه في حق التائب، وهي تتناول الكفر وما دونه.

الدليل الثاني: كيف يتوب العبد من الذنب، ويعاقب عليه بعد التوبة؟ هذا معلوم انتفاؤه في شرع الله وجزائه.

الدليل الثالث: توبة هذا المذنب تسليمُ نفسِه، ولا يمكن تسليمها إلىٰ المقتول، فأقام الشارع وليه مقامه، وجعل تسليم النفس إليه كتسليمها إلىٰ المقتول، بمنزلة تسليم المال الذي عليه لوارثه، فإنه يقوم مقام تسليمه للمورث.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والتحقيق في هذه المسألة: أن القتل يتعلق به ثلاث حقوق: حق لله، وحق للمقتول، وحق للولي. فإذا سلم القاتل نفسه طوعًا واختيارًا إلىٰ الولي ندمًا علىٰ ما فعل، وخوفًا من الله، وتوبة نصوحًا، سقط حقُّ الله بالتوبة، وحق الولي بالاستيفاء أو الصلح أو العفو، وبقي حق المقتول يعوضه الله عنه يوم القيامة عن عبده التائب المحسن، ويصلح بينه وبينه؛ فلا يذهب حق هذا، ولا تبطل توبة هذا.

مسألة: هل يدخل الجنةَ مفعولٌ به؟

اختلف الناس: هل يدخل الجنة مفعول به؟ علىٰ قولين:

أدلة من قال: لا يدخل الجنة:

الدليل الأول: أن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**لا يدخل الجنة ولد زنية**».

وجه الدلالة: إذا كان هذا حال ولد الزنىٰ، مع أنه لا ذنب له في ذلك، ولكنه مظنة كل شر وخبث، وهو جدير أن لا يجيء منه خيرٌ أبدًا، لأنه مخلوق من نطفةٍ خبيثة، وإذا كان الجسد الذي تربىٰ علىٰ الحرام، النار أولىٰ به، فكيف بالجسد المخلوق من النطفة الحرام؟!

الدليل الثاني: أن المفعول به شرٌّ من ولد الزنىٰ وأخزىٰ وأخبث وأوقح. وهو جدير أن لا يوفق لخيرٍ، وأن يحال بينه وبينه، وكلما عمل خيرًا قيض ما يفسده عقوبة له. وقل أن ترىٰ من كان كذلك في صغره إلا وهو في كبره شر مما كان. ولا يوفق لعلم نافع، ولا عمل صالح، ولا توبة نصوح.

قال ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ: والتحقيق في المسألة أن يقال: إن تاب المبتَلىٰ بهذا البلاء، وأناب، ورزق توبة نصوحًا وعملًا صالحًا، وكان في كبره خيرًا منه في صغره، وبدل سيئاته بحسنات، وغسل عار ذلك عنه بأنواع الطاعات والقربات، وغض بصره، وحفظ فرجه من المحرمات، وصدق الله في معاملته = فهذا مغفور له، وهو من أهل الجنة. فإن الله يغفر الذنوب جميعًا، وإذا كانت التوبة تمحو كل ذنب حتىٰ الشرك بالله، وقتل أنبيائه وأوليائه، والسحر، والكفر، وغير ذلك، فلا تقصر عن محو هذا الذنب.

وقد استقرتْ حكمةُ الله به عدلًا وفضلًا أن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، وقد ضمن الله سبحانه لمن تاب من الشرك وقتل النفس والزنىٰ أنه يبدل سيئاته حسنات. وهذا حكم عام لكل تائبٍ من كل ذنب. وقد قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، فلا يخرج من هذا العموم ذنب واحد. ولكن هذا في حق التائبين خاصة.

وأما مفعول به كان في كبره شرًّا مما كان في صغره، لم يوفق لتوبة نصوح ولا لعمل صالح، ولا استدرك ما فات، ولا أحيا ما أمات، ولا بدل السيئات بالحسنات = فهذا بعيد أن يوفق عند الممات لخاتمة يدخل بها الجنة عقوبة له علىٰ عمله. فإن الله سبحانه يعاقب علىٰ السيئة بسيئة أخرىٰ، فتتضاعف عقوبة السيئات بعضها ببعض، كما يثيب علىٰ الحسنة بحسنة أخرىٰ.